بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

الشعوبية (١)

يقوى تفاخر كل عنصر بعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب الى الهمجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من أعظم اصلاحه اسقاط دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالآباء والاجداد فساوى بين العربي والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشعوبية أي عدم الاستعداد بالعرب وتفضيل العجم عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الاسلامية فنشأت منها العداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ في هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول في ارهاق الثاني

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب الينا ما يأتي « اما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء . والوقوف على أوائل الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذي ظهر لي أن ذلك حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بابطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة ، ولا يدخل في هذا الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق : فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم وفي النظر حقه تبين له أن العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الأمم وكتب في خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التي يعنى

(١) نشرت في المجلة الرابع من مجلة المقتبس

بها وتميز من غيرها ولا تذكر بطريق العرض ، إلا ان فن خصائص الأمم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله ويبدأ بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن مايعرفه المولع بالاخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية . »

هذا ماقاله أستاذنا وفيه من كشف الغامض مالم نظفر به في كتاب . والشعوبي بالضم محتقر أمر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي أضافوا الى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم ولا ترى لهم فضلا على غيرهم وأما الذي في حديث مسروق ان رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الاثير الشعوب ههنا العجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم فخص بأحدهما ويجوز أن يكون جمع الشعوبي كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي

قال شارح المفصل في شرح قول الزمخشري « الله احمد على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب وللعصبية وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانضوى الى لفيف الشعوبية وانجاز » والشعوبية مصدر الشعوبي بضم الشين وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم على العجم فضلا اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله أتقاكم) . وقال ابن الحاجب في شرح المفصل أيضاً والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم وان كان الشعوب جيل العجم إلا أنه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب في مثالب العرب وقد انشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول ... وعن عنس عذافرة ذمول
فلست بتارك ايوان كسرى ... لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب بالفلا ساع وذئب بها يعوى وليث وسط غيل
اذا نحروا فذلك يوم عيد وان ذبحوا ففي عرس جليل
يسلون السيوف لرأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها على ذي الاصل والشرف الأصيل
أما لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل الجليل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل

فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان أجبه فاجابه مرتجلا .

أراك على شفا خطر مهول بما أودعت رأسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
ألسنا الضاربين جزى عليكم فان الجزى اقعد بالذليل
متى قرع المنابر فارسي متى عرف الأغر من الحجول
متى علقت وأنت بها زعيم اكف الفرس أعراف الخيول
فخرت بملء ما ضفتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
فخرت بان مأكولا ولبساً وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خد أسيل وضرع من مفارقة وسيل

فقال الصاحب للشعوبي . كيف ترى فقال . لو سمعت ما صدقت ثم قال له . جائزتك جوازك ان وجدتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك

وفد النعمان بن المنذر على كسرى فوجد عنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الامم لا يستثني فارساً ولا غيرهم فقال كسرى وأخذته عزة الملك ، يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل يثني عليهم ورأيت الهند التي لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك في الترك والخزر والصين متى ذكر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان . أصلح الله الملك وجعل يثني عليه ثم قال . ألا ان عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان آمنني من غضبه نطقت به قال كسرى

فانت آمن فقال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به فى عقولها وأحلامها وبسطة محلها . وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الامم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها قال كسرى : بماذا قال النعمان بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها ، ودينها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها ، فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك وقادوا الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ، مهادهم الارض وسقفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد تعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة ، والصين المحتتمة ، والترك المشوهة ، والروم المقشوة ، وأما احسابها وأنسابها ، فليست أمة من الامم الا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه اباً اباً حفظوا بذلك أحسابهم ، وضبطوا به أنسابهم فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى الى غير أبيه وأما سخاؤها فان أدناهم رجلا الذى يكون عنده البكرة أو الناب عليها بلاغه فى حمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى باللذة ويجتزىء بالشربة فيقراها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الثناء

وأما حكمة السنتها فان الله اعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضرب الأمثال وابلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الاجناس ثم خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التى لا يبعد عن مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه ان لهم اشهراً حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون

ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى وأما وفاؤها فان أحدهم يلحظ اللحظة ويومى الايماء فهى الب وعقد لا يحلهما الا خروج نفسه وان أحدهم ليرفع عدداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يفك رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً من داره فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التى اصابته أو تفنى قبيلته لما خفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك انهم يئدون أولادهم من الحاجة فانما يفعله من يفعله منهم بالأناث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج ، وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون اليهم بأزمتهم

فأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطء والعسف فعجب كسرى مما أجابه النعمان به وقال : انك لأهل لموضعك من الرياسة فى اقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفى نفسى ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم بعث الى اكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة أتخوف أن يكون لها غدر ، واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت قال النعمان انما أنا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شىء أحب الى مما سدد الله به أمركم ، واصلح به شأنكم والرأى ان تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابى هذا الى باب كسرى ، فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ، ليعلم أن

العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه . ووصاهم بوصايا فذهبه اليه وقد ساق القصة صاحب العقد وأوردها البلوى فى كتاب الف با

*
* *

ومن حجة الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبى عليه الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله فى حجة الوداع وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم بها نبوته : أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . وهذا القول من النبى عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم الا نفراً ، وقلتم لا تساوينا وان تقدمتنا الى الاسلام ، ثم صليت حتى تصير كالخنى وصمت حتى تصير كأوتار ، ونحن نسامحكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم الا خلافه ، وانما نجيبكم الى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ونقول: أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله ان يكون ملكا أو نبوة فان زعمتم أنه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذى سخرت له الأنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا أم هل كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذى ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها ، وبنى ردماً من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقاً من الناس تربى على خلق الأرض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شئ أدل على كثرة عددهم من هذا ، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ولو لم يكن له الا منارة الاسكندرية التى أسسها فى قعر البحر ، وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز

من ملك الا ملاك الذى هو ابن الف ملك والذى تحته بنت الف ملك والذى فى مربطة الف فيل والذى له نهران ينبتان العود والفوة والجوز والكافور والذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميلا الى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً أما بعد فانى أردت أن تبعث الى رجلا يعلمنى الاسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . وان زعمتم أنه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ، ورمانة القبان التى يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذى يعدل به النجوم ، ودوران الافلاك وعلم الكسوف ، لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذى تفخر به العرب على العجم ، فانما هى كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثوقون فى حلق الاسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى ، قال بجير يعير العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء ،

زعمتم بان الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل بن ضبة ناسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد ... وصاروا سواء فى أصول العناصر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم ... وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أتطمع فى صهري دعياً مجاهراً ... ولم تر ستراً عن دعى مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله ... وتمدح جهلا طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هانئ على مذهب الشعوبية :

وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم أواصر إلا دعوة وبطون
اذا ما دعى باسمي العريف أجبته الى دعوة مما على يهون
لازد عمان بن الملهب نزوة اذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكريري أن النبوة أنزلت على مسمع في البطن وهو جنين
وقالت تميم لاترى أن واحداً كأحنفنا حتى المهات يكون
فلا لمت قيساً بعدها في قتيبة اذا افتخروا إن الحديث شجون

***

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب . وأما أهل التسوية فان منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا الى قوله عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) والى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربي على عجمي فخر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وانما المعنى في هذا ان الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة لوكان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل الا بامر الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم هذا سيد الوبر . وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف واخيار فاذا جعلوا كلهم جملة واحدة هلكوا أو اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كأسنان الحمار . وكيف يستوى الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوى في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس

الخمس ، وقالوا القلب أمير الجسد ومن الاعضاء خادم ومنها مخدومة

قال ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب آدم عليه السلام ويقول النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلوني عليه فانما أنا حسنة من حسناته ثم فخرهم بالانبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ثم فخروا باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وأن اسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم

في بلدة لم يصل عكن بها طنباً ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا نهد بها وطن لكنها لبني الاحرار أوطان
أرض تبنى بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء انسان

فبنوا الاحرار عندهم العجم وبنوا اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد هاجر وهي أمة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وانما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن الشقاء اذا تغير ريحه فاما مثل هاجر التي طهرها الله كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد أماً وجعلها سلالة فهل يجوز لملحد فضلا عن مسلم أن يسميها اللخناء

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يرد به على بن قتيبة في تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود اننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكنا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد همتهم ألا ترى انه من كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بني هاشم في ذؤابتها ومن أمية في أورمتها ومن قيس في أشرف بطن منها انما الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله في قيس بن عاصم هذا سيد أهل الوبر انما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم الا ترى ان عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول .

وإني وان كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور في كل مركب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقال آخر .

إنا وان كرمت أوائلنا لسنا على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة ، لاقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردها أحد بعدي أيما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له ، ومثله قول عائشة أم المؤمنين كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعني بقولها أن أولى الاشياء بالانسان طبائع نفسه وخصالها فاذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته ، وان لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته وقال الشاعر

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما * وجعلته ملكا هماما

وقال آخر . مالي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مولى ولا أنا عربي
ان انتمى منتم الى أحد فانني منتم الى أدبي

روى بن الصيناء الهاشمي عن الفخذمي عن شبيب بن شبة قال ، كنا وقوفا بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الاشراف اذ أقبل بن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال . لوملتم الى دار نيروز ، وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الارض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فان الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا وملنا ولما استقر بنا المكان قال لنا : أي الامم أعقل فنظر بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا . فارس فقال . ليسوا بذلك انهم ملكوا كثيراً من الارض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الحق ، ولبث فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم قلنا فالروم قال . أصحاب صنعة قلنا . فالصين قال أصحاب طرفة قلنا الهند قال . أصحاب فلسفة قلنا السودان قال . شر خلق الله قلنا

الخزر قال . بقر سائمة قلنا . فقل قال العرب قال . فضحكنا قال . أما انى ما أردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من امرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم . يجوز أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن . ويقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتهم همهم وأعلتهم قلوبهم والسنتهم . فلم يزل حياء الله فيهم . وحياؤهم فى أنفسهم . حتى رفع لهم الفخر . وبلغ بهم أشرف الذكر . وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر . على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم خصم . ودفع الحق باللسان . اكبت للجنان اه

*
* *

أما عناية الاسلام باسقاط الجنسية فتراه ماثلا من حسن معاملتهم للموالى فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة زيداً مولاه وقال إن قتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوماً قد طعنوا فى امارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والانصار ، فقال عليه السلام : ان طعنتم فى امارته لقد طعنتم فى امارة أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها لأهل وقالت عائشة : لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فضلت أسامة على وأنا وهو سيان فقال : كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك وكان أحب الى رسول الله منك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته ، فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال له يوماً ولم يكن أسامة من أجمل الناس ، لو كنت جارية لتحليناك وحليناك حتى يرغب الرجال فيك ، وفى بعض الحديث أنه قال : أسامة من أحب الناس الى . وكان صلى الله عليه وسلم أدى الى بنى قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال على بن أبي طالب عليه السلام : سلمان منا أهل البيت . ويروي أن المهدى نظر اليه ويد عمارة بن حمزه فى يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخى وابن عمى عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر ذلك المهدى كالمازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت أنه يقول ومولاى فانتفض والله يدك من يدى فتبسم أمير المؤمنين المهدى ولم يكن الاكرام للموالى فى جفاة العرب

زعم الليثى انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدى مسمع مولى له بهاء ورواء ولسن . فوجه جعفر الى مسمع مولى له لينازعه ومجلس مسمع حافل فقال ، ان أنصفنى والله جعفر أنصفته ، وان حضر حضرت معه ، وان عند عن الحق عندت عنه ، وان وجه الى مولى مثل هذا وأومأ الى مولى جعفر فقال : مولى مثل هذا عاضاً لما يكره وجهت اليه ، وأومأ الى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذى تباهى بمثله العرب ، وقد قيل ، الرجل لأبيه والمولى من مواليه ، وفى بعض الاحاديث . ان المعتق من فضل طينة المعتق . ويروى أن سلمان أخذ من بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه فانتزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا أبا عبد الله انما يحل لك من هذا مايحل لنا . ويروى أن رجلا من موالى بنى مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هداب المازنى وهو فى ذلك الوقت سيد بنى تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له فى هدم داره . فأدخل الفعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافاً كف عنه ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو . وقد كان فى قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشى قال واقوماه وان قيل عربى قال وامادتاه . وان قيل مولى أو عجمى قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروى أن ناسكا من بنى الهجيم بن عمر بن تميم كان يقول فى قصصه . اللهم اغفر للعرب

خاصة وللموالى عامة . فاما العجم فهم عبيدك والأمر اليك

ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكنونهم بالكنى . ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب . ولا يمشون فى الصف معهم . ولا يتقدمونهم فى الموكب وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم . وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخبار لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب . وإن كان الذى يحضر عزيزاً وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها الى مواليها فان رضى زوج والارد فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الاشعث وعبد الله بن الجارود ولقى مالقى من قراء أهل العراق وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة فلما علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا فاقبل على الموالى وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها وكان الذى تولى ذلك منهم رجل من بنى سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة

ولقد أورد ابن بسام فى الذخيرة فى ترجمة الأديب أبى جعفر أحمد الدودين البلنسى رسالة بن غرسية يخاطب بها أبا جعفر بن الجزار فى فضل الشعوبية وذم العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الأعارب ما علينا ناس لم نحك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم أشتم لكم حسباً ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء

وقال فيها فى وصف العجم

هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منحوكم بعد ذلك سؤدداً

حلم وعلم ، ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة الاسترلوميقا والجومطريقا ، والعلمة بالارثماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقى والطوبيقا ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع والنفرة فى علوم الاديان والابدان ماشئت من تحقيق وترقيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لاعلى وصف الناقة العدنيه ، فعلهم ليس بالسفاف كفعل نائلة وإساف ، أصغر بشأنكم اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذبوا رغالكم قاد فيل الحبشة الى حرم الله لاستئصالكم

والرسالة كلها على هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من الذخيرة وقد رد عليها كثيرون من أدباء الاندلس فى عصر كاتبها ومن جملتهم المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والبذاءة أقرب وكتابة ابن غرسية أمتن وحججه أوضح .

وقال الجاحظ فى رسالته الى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد فى النابتة وقد انتظموا (الى ولاة الامر فى عهده) معانى العناد اجمع . وبلغوا غاية البدع ثم قرنوا بذلك العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التى لا تبقى ديناً إلا أفسدته ، ولادنيا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية وماقد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجمت من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً لقول النبى صلى الله عليه وسلم ، مولى القوم منهم ، ولقوله الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب ، . فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب وأن الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا فنحن معاشر الموالى بتقديمنا فى العجم أشرف من العرب وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرف من العجم وللعرب القديم دون الحديث ولنا خصلتان جميعاً وافرتان فينا

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه وبعد أن جعل اسماعيل أعجمياً عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربياً ما كان عندنا الا أعجمياً لان الاعجم لا يصير عربياً كما ان العربي لا يصير أعجمياً فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي صلى الله عليه وسلم فكذلك حكم قوله مولى القوم منهم وقوله . الولاء لحمة الى أن قال وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة وليس على ظهرها الا فخور الا قليل ، وأى شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بعتقك إياه .

العلم الصحيح (١)

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الأديان ، أو دنيوى ودينى ، فالدنيوي علم ما فيه صلاح المعاش ، وحفظ النظام فى عالم الكون والفساد ، والدينى كل ماله حساس بالمعاد ، وتهذيب النفس ، والابتعاد عن المنكرات فى هذه الفانية ، للظفر بالباقيات الصالحات فى تلك الدار الباقية

كان العلم الدينى لأول أمره موجزاً مندمجاً ، لم ينقد قواعد مقررة ، وأصولا نافعة ، فكان العربى يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين فى ساعة ، ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك ، فقد عرفت من الدين جوهره وسره ، وما ينبغى له ، فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبيات من أجل التنازع على الملك ، وتجاذب حبل السلطة ، فمزج الدين بالسياسة ، ودخل فى الاسلام من لا يهمه منه غير المغانم ، وراح بعضهم يدسون مالم يقل فيما قيل ، وكثر المنافقون ممن سموا بالدين فى سرهم ، وهم من اتباعه فى جهرهم ، وأنشأوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ماكرون

دسوا عوامل إفسادهم وفي القوم يومئذ صفوة من الأخيار ، توفروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان ، بكل سيف وسنان ، وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض ، ورجال

(١) نشرت فى جريدة الظاهر سنة ١٣٢٤ هـ

السياسة وأكثرهم لا يرجع فى الغالب الى رأى ومذهب ، يدهنون من وراء ذلك لحملة الدين ، ويبذلون لهم ما يستفوونهم به ، لينطقوا بألسنتهم ، ولا يفسدوا عليهم امرهم ، اذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أنزل ، وإلصاقهم به ما ليس منه . ولما رأى العقلاء عائث الفساد يدب دبيبه فى علوم المعاد ، خافوا أن يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر ، فلم يروا بداً من التدوين والتقييد ، والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه ، وأنت خبير بما يقتضى ذلك من التطويل دع ما يتخلله بالطبع لأن فى القائمين به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضى على هذه الحال ردح من الزمن ، وعلوم الدين لم تمتزج بشىء من علوم الدنيا ، الى أن دخلت علوم الحضارة فى الملة وسموها علوم الأوائل ورأت من بعض خلفائنا من أخذ بيدها وهيأ لها أسباب انتشارها ، فعندها كثرت المذاهب والآراء ، ونشأ المراك الأول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أى بين الدين القائم بالتسليم ، وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الدينى تابعة لمجرى السياسة ، ان جاء عاقل من الأمراء والملوك يكل أمره لجهابذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون ، وإذا ولى رقاب الناس جاهل ينزل نفسه فى كل المنازل ، فيتولى من الخلق أمور دنياهم ودينهم ، ويقرب اليه كل من يتابعه على أهوائه ، ولا ينكر عليه مغالاته ، والعقلاء بمعزل لا ينطقون إلا كارهين ، وربما تدرعوا الخمول وآثروا الانقطاع على الدخول فى المجتمع لا محاضه النصح ، وتخليصه من المفاسد الطارئة عليه

نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء فى كل دور من أدواره ولكن قوتهم ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يسمع ، اذا نسبتهم لأولئك المنافقين ، فى خدمة الآمرين والناهين ، وقد قل عددهم كثيراً فى هذه الديار خصوصا بعد الدولتين النورية والصلاحية ، وصار العلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ، ومناطيق ومفاهيم ، وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ، ويدسونها فيه ، وللجهل الكلمة النافذة فى الهيئة الاجتماعية ، الى أن كان القرن التاسع والعاشر وما يليهما من قرون الهجرة ، وهى من العصور المظلمة من تاريخ الاسلام حقيقة ، فعندئذ قل

المميز والمفكر ، وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة ، وصار من يتعاطاها فى نفسه وبين خاصته كمن يأتى أمراً إداً ، ويخون دينه وأمته ، وبطل النظر فى الاصول وتحتم على كل عقل أن لا ينظر فى غير الفروع ، مما أملته خواطر المتأخرين . فأصبح بذلك يعد العالم كل العالم من يحقق من هذه الفروع أكثر . اعتبر ذلك بما تتلوه فى تراجم أعيان العلماء فى هذه القرون ، فانك لا تراها تتعدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو ببضع سنين ، نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام فى معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى فى الكتاب والسنة ، وعد الناظر فيهما محاولا للخروج عن سنن الجماعة ، فاذا خالف فرد ما الفوه أهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه أو نفوه وشردوه ، واذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلا للآخرين

تأصلت الأوهام فعدت من أقدس القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدعياء العلم ، والتقوى ، وصدرت الأحكام ، بعوامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل فى التبلبل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء ، وانشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاما ادعوه لأنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفى ، والصوفى ينقم على تقديسهم . والطعن فيمن عداهم ممن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما وقر فى نفوسهم وركز فى طبائعهم ، وعشش فى مخيلاتهم :

وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمماحكات . لو بعث الشارع وأصحابه لرؤا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكماً بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . وماذا أصف من تسرب الجهل الى العبث بالعقول فى تلك القرون ، وانك لترى أثراً من آثاره لهذا العهد عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر فى المعقولات منا ، فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع الى أفواههم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالحنة فيعطيها لمن يشاء ، ويحرج منها من يشاء ، فوا رحمتاه على أناس أضاعوا فضل عقولهم فى الجدل ، ولكم كان الخير يأتى من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ،

ونبذت الاهواء ظهرياً ، ولكن اذا أراد الله بقوم سوءاً رزقهم الجدل ومنعهم العمل

قلت فيما سلف إن علوم الدنيا دخلت فى الملة لما رأت من يعضدها من رجال السياسة وكان ذلك فى القرن الاول بيد انها لم تنتشر الانتشار المطلوب الا فى القرن الثانى والثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف الى أواخر القرن السابع أيام قل المشتغلون واو على طريقة نظرية بعلوم العقل التى لا قائمة لأمة بدونها مهما أخلصت فى دينها . واذا استقصيت تواريخهم تجد المتلبسين بشعار العلماء لا يعدون فى جملتهم ذاك الرياضى والجغرافى وربما فضلوا عليهما المعمار والمرثار . من أجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم فى انشائها بعد القرون الوسطى منازل خاصة بالفقيه والمحدث والقارىء والرباطات للمجذمين المعدمين والكسالى ولم نجد مدرسة الهم الا بعض مدارس الطب والهندسة موقوفة على الرياضيين والطبيعيين والفلكيين والمؤرخين كأن علومهم هذه أباطيل لا تصح الاعانة عليها . وحسب الرياضى أن يفضى الفقيه عنه ما دامت الحالة بين هبوط وصعود والاجود بها أن تدعى سقوطاً الى منتصف القرن الماضى أيام أخذ السلطان عبد المجيد فى البلاد العثمانية ومحمد على فى هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم ويعدان أهلها فى مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر . على انه لم تحمد عودة تلك العلوم الدنيوية التى سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ما ظلت الامة معها صائماً أخذ منه الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة موسر وقد حوت ما طاب وحلا من صنوف الاطعمة والحلواء فأخذ يلتهم ما وصلت يده اليه بدون ترود يزدرده بلا مضغ ويمزج باردة بحاره وحلوه بحامضه ويؤخر ما يقتضى تقديمه ويقدم ما يحسن تأخيره . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقى غير قشوره شربت مصة من مورده ظنتها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق غاية النور والازراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن فى الشرائع من عمل الجهابذة النحارير وانكار القديم مهما كان نفعه والتعلق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعى النهوض والاستنارة . وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم

من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم فى مقام واحد عاحكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح .

يقول فتية اليوم إنه لا نجاح للأمة الا بنبذ ذلك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علاته . وفاتهم أن ما يسوغ فى الغرب لا يتم فى الشرق . وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لابد من مراعاتها . وأن اقامة مدينة جديدة فى بادية أسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها . وأن من العقل أن لا ينبذ ذلك القديم بل يرجع فيه الى الاصل القليل . ويؤخذ النافع منه . ويترك ما عدا ذلك من تحريف المحرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذى تمس اليه الحاجة . واطلاق الحكم للعقل يعمل عمله فى طريقه .

العلم الصحيح هو الذى يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان فى ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالى حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء . يتجشم المخاطر فى نشر خاطر . ويركب كل صعب وذلول لانارة مظلمات العقول

العلم الصحيح هو الذى خلص من ضغط الاهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات . وأثر فى نفسه تأثيراً مجرداً . فاذا نطق بعده فلا ينطق الا عما يوحى اليه هاتف الفهم السليم . والعقل الحكيم . فلا يتعصب للآباء والجدود . ومألوفات المحيط وعادات الاهل والاقليم . ويتحزب لشيخه واستاذه ولو تجلى له أنهما تنكبا عن طريق الحق .

العلم الصحيح هو الذى يحترم صاحبه به آراء غيره . ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة . ولا يعدها سخافات وترهات . فينكر كل مالا يعلم ويستكثر ما وعى . ولا يعد حطة عليه أن يتسقط الحكمة أني وجدها وفى أى المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذى تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه . فلا يتكبر عن افادة . ولا يستنكف من استفادة . ويسعى الى بث ما يعرف فى كل أفق ويعد البشر إخوة فلا يقصر فى

تعليمهم مما علم . يقينه ان صلاح الافراد سلم للوصول الى اصلاح الجماعة . والمصلحة العامة هي أبداً موضوع نظر من رزق حظا من هذا العلم

العلم الصحيح هو الذي يربي الملكات ويهذب النفوس فلا يستخدم صاحبه علمه أداة للغلبة بالباطل والأدلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة الزائلة والتبجح والتنطس . فامنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم وكثر فيها سواد أهله بمنك وحسن تسديدك

علاقة العرب بالغرب (١)

فأميرنا هو الذي وضع المسألة العربية على بساط البحث ووجه اليها انظار العالم الغربي وكانت مسألتنا من قبل مندمجة في المسأله الشرقية فميز بصحة عقله بين المسألتين الشرقية والعربية وأبان للغربيين أن العرب غير الترك واننا أمة قوية الشكيمة يبلغ عددنا أكثر من نصف سكان تلك الامبراطورية العثمانية المنحلة وأبعد منهم كعباً في المدنية وليس لهم من المزايا علينا الا ان الطالع ساعد ملوكهم الاقدمين وقاموا بغفلة الدهر عنهم فانشأوا ذاك الملك الضخم بقوة سلاحهم الذي لم يبرحوا شاهريه الى ساعة انهزامهم من بين أظهرنا أي أنهم اكتفوا مدة أربعة قرون باستصفاء البلاد وما استطاعوا أن يستصفوا القلوب وشتان بين من يخضع الاجسام الجامدة ومن يخضع الاجسام الحية

ربما كان بين أهل الغرب اليوم عدد قليل من الناس لا يثبتون مزية للمدنية العربية القديمة وهؤلاء ممن أخذوا معلوماتهم عن كتب املاها المتعصبون منهم وبعضهم من سكان الاديار الذين ضاقت عن تحملهم مثل أرض فرنسا وسويسرا الحرة ولكن هناك مئات من علماء المشرقيات أخصوا بعلوم الشرق ولغاته ولا

(١) من محاضرة في النادي العربي بدمشق مساء ١٤ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩) نشرت في جريدة المقتبس

سيما بسيدتها اللغة العربية فدرسوا الحضارة العربية والتاريخ العربي فى مظانه وبلغته وأزالوا غشاوة الاوهام عن العوام بما أنشأوه من المجلات ونشروه من الكتب بلغاتهم المختلفة يبينون للناس مجد هذه الامة الغابر وأيامها الغر المحجلة وربما كان منهم المتعصب للعرب وتحميد دولهم السالفة أكثر من تعصبه لمدنية الامم الحديثة وهؤلاء هم الذين يخدمون العلم للعلم لا يتبعون فيه على الغالب هوى النفوس فى السياسة ولا سلطان للأديان تمليه على ضمائرهم .

ومن قرأ دائرة المعارف الاسلامية التى لا تزال تصدر الى اليوم فى مطبعة ليدن من عمل هولاندة بلغات العلم الثلاث الانكليزية والالمانية والفرنسوية وهو أصح كتاب كتب فى تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها وأصول شعوبها ومن عرف ان أمهات كتبنا فى الدين والعلم والتاريخ لا تزال تطبع فى مطابع الغرب منذ زهاء أربعمائة سنة أى على أوائل عهد اختراع الطباعة وأن المطبوع منها بالعناية الفائقة تتألف منه خزانة كتب كبرى تحتوى على كل فن ومطلب وأن ماطبع من أسفار أسلافنا فى اوربا وأميركا على أيدى المستشرقين من أهل تينك القارتين يبلغ أضعاف أضعاف ماطبع بلغات الشرق كله — من عرف كل هذا يدرك ولا جرم مبلغ عنايه الافرنج بلغتنا ومدنيتنا وتاريخنا

أكدوا أيها السادة أن تفسير القرآن الكريم يقرأ درساً على طلاب الجامعات فى الغرب كما تقرأ دروس الفلسفة والتاريخ والادب . وماأنس لاأنس وقد دعانى فى بودابست الاستاذ غولد صهير العلامة المجرى الى داره وهو يقول انى الآن ذاهب الى الكلية لالقاء درسى وأعود اليك بعد مدة فسألته ماذا تقرأ الآن لتلاميذك يا أستاذ فقال تفسير القرآن وأغرب من هذا ماذكره لى صديقي العلامة أحمد زكى باشا المصرى قال دخلت على الاستاذ درانبورغ فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فرأيته اسرائيلياً يدرس كتاب المسلمين لجماعة من المسيحيين أما الحديث والفقه والاصول والتصرف فهو أيضاً مما يعانونه كما يعانون غيره من آدابنا وتاريخنا وعلومنا ورجال الافرنج يدركون حقيقة العرب وعلومهم منذ توطد سلطان الامويين فى الاندلس وأخذ بعض المتنورين منهم يدخلون تلك المملكة العربية ويدرسون العلوم على علمائها ويعودون الى فرنسا وأيطاليا

ينشرونها بين قومهم وكان بعض المشتغلين على علماء العرب من الاسرائيليين وبعضهم من المسيحيين الذين تولوا بما تعلموه أعظم منصب ديني في النصرانية . وكأن الله سخر العرب ليفتحوا الاندلس ويعمروها حتى ينقلوا لاهل أوربا العلم والحضارة ولما انهوا مهمتهم عادوا أدراجهم من تلك المملكة البديعة

امتاز المسلمون باحسانهم الى من خالفهم اذا كان مما تحمد سيرته السياسية والوطنية ولذلك حموا الاسرائيليين مواطنيهم في الاندلس ويوم أخرجوا منها فكروا في حماية الاسرائيليين ومصالحهم كما نظروا في حماية أبناء دينهم اشترطوا على الغالب شروطاً تقيهم بأسه وكان الاسرائيليون اذ ذاك في الغرب مضطهدين في كل مكان الا في الاندلس وكم استمتع الاسرائيليون بحريتهم على عهد العرب في الاندلس على عهد العرب في الاندلس على صورة لم يعد لهم مثلها الا في القرن الاخير في أوربا

حمى العرب الاسرائيليين في الغرب كما حموهم في الشرق واعتمدوا عليهم في مصالح الدولة لان الاسرائيليين كانوا اذ ذاك يعضدون الحكومة التي تحكمهم كما هو اليوم في أيطاليا حيث كان لهم القدح المعلى في قيام الوحدة الايطالية منذ نحو خمسين سنة وكان لهم من النفوذ الاقتصادي العظيم ما خدموا به الوحدة واخلصوا لها وخدموا سياسة ايطاليا حتى أصبح منهم الولاة ورؤساء النظار وكبار العمال [1] لاينازعهم منازع وذلك لان الاسرائيلي في ايطاليا أيطالي أولا ثم اسرائيلي خلافا لما عليه سائر الممالك

ولو لم يكن حكم العرب في الاندلس الى اللين والعدل مادام ثمانية قرون وكذلك حكمهم في جزائر صقلية وسردانية ومنورقة وميورقة وقرسقة وغيرها من جزر الطليان وكان اختلاط العرب بالامم اللاتينية ولاسيما بالبرتقاليين والاسبانيين والفرنسيس والطليان ولذلك تجد في لغات هذه الامم مئات من الالفاظ العربية ولم ير الايطاليون أن يغيروا شيئاً من مصطلحات العرب حتى أن الملك رجار الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ٨٤٥ كان يتكلم بالعربية ومثله كثير من ملوك ايطاليا وكان يفضل كثيراً على علماء العرب وهو الذي وضع له الشريف

(١) ايطاليا الحديثة للأمير جيوفاني بورغزة
Prince Giovanni Borghèse : L'Italie Moderne.

الادريسى الجغرافى كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم (١)

وكانت دراسة العربية شائعة فى شبه جزيرة ايطاليا ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية وقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ م باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة فى عدة أماكن من أيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت فى بلاط نورمانديا وهوهانستوفين وفريدريك الثانى ودى منفروا لغة العلم العالى والشعر والادب . وكان من سقوط الدولة البيزنطية فى القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح الدينى ان هبت فى أرجاء ايطاليا حركة النهضة العلمية التى تجلت فى أجل مظاهرها فى الدروس الشرقية ولاسيما فى دروس العربية والاسلام

وشاعت فى القرون الوسطى فى أوربا (٢) لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهى اللغة العبرانية التى كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التى كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابى ، لذلك انشئ فى باريز منذ أواسط القرن الثالث للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربيـة . وفى سنة ١١ م شرع فى باريز واكسفورد وبولون وفلنكة بتدريس العربية مع العبرانية والكلدانية وكان لأسرة ميديسيس الايطالية فضل على الآداب العربية كما لها الفضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

ثم ان الافرنج زاد اختلاطهم بالعرب فى الحروب الصليبية فان هذه وان كلفت أمم أوربا ملايين من الانفس والاموال الا أن أهلها عادوا منها بعـد جهاد نحو قرنين وقد لقنوا أموراً كثيرة من العرب أثرت فى حضارتهم واخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم لانهم شاهدوا أمة أرقى منهم إذ ذاك فأخذوا عنها ما اتسعت له أوقاتهم وكانوا على اختلاط تام مع الامم التى يحاربونها

(١) مجلة المقتبس م ٨ ص ٧٦
(٢) المقتبس م٨ ص ٤٠١

وبينما كان السيف والنشاب والمجانيق تعمل عملها بين الفريقين كان تجار الافرنج يدخلون بلاد العرب ويتجرون على الرحب والسعة لا ينازعهم منازع فأعجب بهذه الاخلاق مؤرخو الحروب الصليبية منهم واقر بمنافعها لهم أهل الاجيال الخالقة وفى مقدمتهم ميشو فى تاريخ الحروب الصليبية وقد ذكر على تعصبه أشياء كثيرة مما أخذه الافرنج عن العرب دع مئات من كتاب الغرب وباحثيهم ذكروا فى كتبهم ومقالاتهم كثيراً مما استفادته أجيال الفرنجة وغيرهم من امتزاج الصليبيين بالعرب وقد أدهشهم ما شهدوه من عدل اصلاح الدين يوسف ابن أيوب رحمه الله حتى ادعى شاعره عبد المنعم الجليانى أنهم رسموه فى هياكلهم فقال .

وخطوا بارجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفى به فى التمائم

* * *

وان ما نقرؤه فى تاريخ شواطئ البحر الأبيض حيث ينزل العرب من مراكش بالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة فمصر فسورية من وقائع حدثت فى أزمان مختلفة بين العرب وبين البنادقة والجنويزيين والبيزيين والاسبانيين والبرتغاليين لا تطعن فى حسن الصلات بين العرب وجيرانهم على الشاطئ المحاذى لهم من هذا البحر لأن هذه الغزوات البحرية كانت بصنع قراصين ومتشردين وغاغة ظالمين لا دخل فيها للأمم وخاصتها على الأقل ولا سلطة فيها للأديان لأن الاديان كلها تأمر بالمعرف وتنهى عن المنكر ومن أعظم المنكرات فيها قتل النفس التى حرم الله . ولذلك تجد المعاهدات تعقد الحين بعد الآخر بين صاحب تونس أو مصر أو الشام أو الغرب الاقصى وبين الملوك النازلين من الافرنج فى جنوبى أوربا وهذه الغزوات البحرية أشبه بالغزوات البرية التى طالما حدثت لها أمثال بين الامة الواحدة من الافرنج أو الامة الواحدة من العرب

ولطالما غزا سكان جنوبى فرنسا سكان شمالها ودينهم واحد ولسانهم واحد وعاداتهم وتقاليدهم متقاربة ولم يتيسر نزع هذا الخلق وهو من اخلاق البداوة فى الغالب الا بما قام فى فرنسا من الاعمال المالية التى ربطت ابن الشمال بابن الجنوب

برباط معنوى مادى فارتفعت الخصومات من بينهما لأن المصلحة المادية مفضلة على كل شئ فقد قال الجاحظ « وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لاهلها وتتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهوون لان ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل . »

قال الكونت هنرى دى كاستر فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح . ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم الفيزيغوت . ويقول دوزى إن هذا الفتح لم يكن مضراً بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الامة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة وآدابها وأصبح القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اضطهدت أوربا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين قال ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً الا واعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ فى الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم . اه

وقال سيديليو فى كتابه حضارة العرب مما يدل على شأن الأمة العربية أنها فتحت بلاداً أجنبية ولم يتغلب عليها غريب مع اتصافها منذ أربعة آلاف سنة بما انفردت به من جميل الاخلاق والعادات فكانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأمورها متأهبة للاغارة على مجاوريها أخذت مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الاجنبية وانحصرت سطوتها فى بلادها العربية فأخذت تقاتل الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش

ملك الفرس واسكندر المقدونى وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة ثم أتى النبى فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج فى اسبانيا والبرتقال الى نهر القانج فى الهند وانتشر نور المعارف والتمدن فى المشرق والمغرب وأهل أوربا إذ ذاك فى ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان واجتهد العباسية ببغداد والاموية بقرطبة والفاطمية فى القاهرة بترقية الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية واقتصروا على السلطة الدينية التى استمرت لهم فى جميع ارجاء ممالكهم وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاكتشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الاتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم . اهـ

وبعد فان أمة هذا ماضيها وهذا حاضرها كيف يجهل بعضهم أو يتجاهلون أمرها وهى التى كانت الصلة والعائد بين المدنية القديمة والمدنية الحديثه ولولا العرب لتأخرت نشأة الحضارة الغربية قروناً كما اكد بعض المنصفين من علماء الغرب . فاذا كان ماضينا ما رأيت وفى حالتنا الحاضرة بعض النواقص جاء لنا من الحكم الاستبدادى الذى نخر العظم قروناً طويلة فاننا لايصح الا أن يقال عنا اليوم كما وصفنا رئيس الكلية الاميركيه الدكتور هوردبلس فى مؤتمر الصلح أمة كسائر الامم فينا من العيوب مافى غيرنا أما استعدادنا للرقى اذا رفعت عن عيوننا العصائب فقد أثبته رجالنا الذين تعلموا وتهذبوا فكانوا فى مصر والسودان وفى أميركا وأوربا على مستوى الغربى الراقى فى علمهم وآدابهم ومتاجرهم وصناعاتهم وأثبته دعاة الثورة العربية وما ظهر من تفانيهم فى وطنيتهم لارجاع مجد أمتهم بعد ذبوله

واليك مع هذا ما ذكره غستاف لوبون صاحب كتاب مدنية العرب فى كتابه علم النفس السياسية[1] فى باب الاسباب النفسية: الق بالمدنية الاوربية عن تحويل الشعوب المنحطة عن حالتهم قال : لا تعمل التربية الا أن تلخص المدنية

(١) اسمه هكذا : G. Le Bon : Lapsychologie politique

والاوضاع والمعتقدات تمثل حاجيات هذه المدنية واذا لم يكن بين المدنية وافكار شعب وعواطفه اتصال فان التربية التي تؤلف هذه المدنية لايكون لها تأثير فيه وكذلك الحال في الاوضاع المناسبة لبعض الحاجات فانها لاتطابق الحاجات المختلفة ويدرك المرء بأدنى نظر الفرق بين عقول أمم الشرق ولا سيما المسلمون والهنود الصينيون وبين عقول أهل الغرب فيجده عظيما بحيث يتعذر تطبيق أوضاع بعضهم على الآخر . فان الافكار والمناحي والمعتقدات وطرق العيش تختلف بين الفريقين اختلافاً ظاهراً

فبينما نرى أمم الغرب تشتد كل يوم في نزع مؤثرات الاجداد نجد الشرق يعيش بماضيه الا قليلا . فالمجتمعات الشرقية ثابتة في عاداتها وهي في الشرقيين خالدة على صورة ليست لها في أوربا اليوم . فان المعتقدات التي أضعناها يعنون هم بالاحتفاظ بها جد الاحتفاظ والعائلة التي تقوضت من أساسها في الغرب لم تبرح متينة الدعائم في الشرق على نحو ما كانت منذ أبعد عصور التاريخ . والمبادئ التي فقدت من تأثيرها فينا أصبحت محافظة على تأثيرها فيهم . غاية الشرقيين قوية جداً وحاجاتهم ضعيفة كل الضعف وغاية الغربيين غير أكيدة وحاجاتهم عظيمة جداً . فان الدين والاسرة والسلطة العالية والعادات وجميع هذه الأسس القويمة في المجتمعات القديمة التي نزعها الغرب من أصولها قد احتفظت بنفوذها في الشرق ولا من منازع لها . وذلك لان الاهتمام بالاستعاضة عنها لم ينفذ بعد الى عقول الشرقيين ويتجلى الفرق الفاحش بين الشرق والغرب من أوضاعهما فان جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية في الشرقيين عربا كانوا أو هنوداً تنبعث خاصة من معتقداتهم الدينية على حين نرى أكثر الشعوب الاوربية تديناً قد فصل منذ زمن طويل بين الاوضاع السياسية والمعتقدات

ليس في الشرق قانون مدني بل هناك قانون ديني فقط . وكل جديد مهما كان نوعه لايقبل الا على شرط أن يكون نتيجة قواعد لاهوتية وليس الاختلاف بين الغربيين والشرقيين في تركيب العقول والأوضاع والمعتقدات فقط بل في أدنى أسباب الحياة ولا سيما في بساطة الحاجات بالنسبة الى تشعب حاجاتنا فان مطالب الحياة عندهم قليلة جداً اذا قيست بمطالبنا وتشعباتها ولذلك يلقى الشرقي اذا قبل

المدنية الاوربية لأنها تلزمه بامور لا يستطيع تطبيقها ولا تستلزمها حالته وبيئته فتقضي فيه على ما وردته من ماضيه وتتركه لا يعرف كيف يستقر أمام الحاضر

والنتيجة القطعية الوحيدة من التعليم الأوربي سواء كان في الزنجي أو الهندي هو أن تتبدل الصفات الارثية فيه دون أن تتمكن من ابلاغ التربية الاوربية اليه . وقد يحصل الشرقي على قطع من الافكار الاوربية ولكن انتفاعه بها يكون بعواطف وأفكار وحشية أو نصف متحضرة وتتقاذف عقول الشرقيين آراء متضاربة ومبادىء في الاخلاق متعارضة . ولا يخدعنا هذا الطلاء الضعيف الذي يظهر فيه الشرقي اذا لقف شيئاً من التربية الاوربية فان ذلك أشبه بالالبسة الموقتة في دور التمثيل لا يجب أن ينظر اليها عن أمم

قال ولقد حدثت مئات من المرات أناساً من أدباء الهنود تخرجوا في جامعات انكلترا أو الغرب فثبت عندي أن بين أفكارهم وافكارنا ومنطقهم ومنطقنا وعواطفهم وعواطفنا فروقا واسعة المدى وهوى سحيقة بعيدة . وليس معنى هذا أنه يستحيل على الشرقي أن يكون كالأوربي حذو القذة بالقذة . كلا فان الشرقي يكون كالغربي ولكن بعد تعاقب الدهور والأعصار كما وقع لأجدادنا فانهم ظلوا نحو الف سنة يتخبطون في حالة التذبذب والتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها . وقانون النشوء الاجتماعي كالنشوء الطبيعي لابد من أن يستوفي حظه .

والسبب المهم في أن مدنيتنا عاجزة عن الوصول الى الشعوب المنحطة هو انها متشعبة مركبة والشرقيون أمم من السذاجة اقرب فاقتضت لهم البسائط فانا نرى المدنية الاسلامية وما أثره المسلمون في الشرق ولا يزالون يؤثرونه قد نجحت في هذا المعنى ذلك لان الامم التي دانت للاسلام كانت أو هي في الغالب شرقية لها من العواطف والحاجات والعادات في الحياة ما يماثل عواطف الفاتحين وحاجاتهم وعاداتهم . وليس في قبولهم أصول المدنية الاسلامية ما يتنافر مع حاجتهم وعلى العكس اذا صحت عزيمتهم على الأخذ بالمدنية الغربية فانها تدك بنيان ما تعودوه بما فيها من الاختلاط والارتباك

***

قال وقد زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والاخلاقية العجيبة التى أثرها المسلمون فى الارض كانت بفضل ماديانهم ولكن لا يصح اليوم أن نجهل بان هذه المؤثرات قد دامت فى مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون نفوذهم السياسى فان المسلمين في الصين يزيدون اليوم على ٢٠ مليوناً وفى الهند على خمسين أي أن سوادهم أوفر من العهد الذى بلغت فيه دولة المغول أرقي درجات عزتها ومنعتها ولا يزال هذا العدد فى نمو . ان المسلمين بعد الرومان هم الامه الممدنة الوحيدة التى نجحت فى نقل تهذيبها الاجتماعى ودينها وأوضاعها وعلومها الى العناصر المختلفة التى افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل نراها على العكس آخذة بالنمو تتعدى الحدود التى بلغتها فى أيام القوة المادية . ان القرآن وما اشتق منه هو الى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الاولية حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق . وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجاراً سذجاً تدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلما توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة فى صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الاسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون فى تلك القارة الغريبة على حين يطوف الاوربيون فى الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثرا لنفوذ أدبي .

فلا التربية ولا الاوضاع ولا المعتقدات ولا غير ذلك من الاسباب التى يتذرع بها الاوربيون للتأثير فى الشرق تفيد فى تمدينه ولا سيما فى الشعوب المنحطة منه . وحالة اليابان لا تقوم دليلا على نقض هذه القضية لان اليابان وقد بلغت درجة راقية فى المدنية كان السبب فى تمدنها انها قبلت نتائج المدنية الغربية بجملتها دفعة واحدة فلم تغير فى الحقيقة قوانينها الاساسية ولا معتقداتها ولا أخلاقها فهى تشبه شريفاً من أرباب الاقطاعات عاد الى الحياة بعد موته فتعلم استعمال القاطرات واطلاق المدافع .

هذا رأى الفيلسوف غستاف لوبون فى مدنيتنا وحالتنا الاجتماعية وتأثرنا بالمدنية الغربية وصلاتنا مع أهلها وصلاتهم معنا وهو كما ترون صحيح من أكثر وجوهه لا شائبة للتعصب والتقاليد فيه وقد حمد حالتنا من حيث تكوين الاسرة

والبيوت والسذاجة. وعسانا اليوم وقد زاد اختلاطنا بالغرب لا نأخذ منه الا ما تمس حاجتنا اليه ونبقي على القديم النافع فقد قيل إن القوة الحقيقية في كل مملكة ماعرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أى صورة كانت عار على الوطنية

لم يخل عصر من العصور من اختلاط العرب بالغرب سواء كان بطرق الفتح أو التجارة أو طلب العلم أو للجوار وقد قصد اوربا كثير من رجالنا منذ زهاء عشرة قرون وكذلك الاوربيون وصلوا الى بلادنا منذ القديم وكان الطليان أسبق الأمم الى هذا الاختلاط كما رأيتم ومع أنه على أتمه ولاسيما منذ استولى نابليون على مصر وجانب من الشام لم يبرح الشرق شرقا والغرب غربا أخذوا منا وأخذنا منهم ولكن ما أخذوه عنا مزجوه فى حضارتهم وكذلك كانت حالنا معهم وما اقتبسناه من نور علومهم وأساليب تربيتهم فى القرن الماضى وهذا القرن

ولا غضاضة علينا اذا وقفنا معاشر العرب مع الغرب عند حد الأخذ من حضارته وعاداته فان التخوم اذا تناءت تختلف أهويتها وطباع أهلها فما يفيد من القوانين هنا لايطبق على سكان ما وراء النهر مثلا وما ينفع سكان الارجنتين لا يتأتى تطبيقه على أهل الصين . ومن أسرار هذا الكون أن كل أمة تحرص على سلطانها ولسانها وأوضاعها وتدافع عنها جهدها والوقائع التاريخية الكبرى تظهر آثارها فى الأمم حتى بعد قرون ففارات الصليبيين والتاتار على هذا الشرق الاقرب أثرت فيه قروناً . وغارات العرب على أوربا أثرت فيها بحيث يشهد التاريخ ان العرب يوم زحزحوا عن بواتيه فى فرنسا على يد شارل مارتل هم غيرهم يوم جلوا عن أرض الاندلس

اذا كان الاختلاف طبيعياً بين أهل قطرين لسان كل منهما يختلف عن صاحبه أما العادات والتقاليد فواحدة الا قليلا أفلا يكون أشد بين أمم متباعدة فى معظم مشخصاتها ومقوماتها ؟ ونضرب لذلك مثال أمتين حيتين فى الغرب : البلجيك وسويسرا وهما مملكتان صغيرتان أدهشتا العالم بمدنيتهما ووطنيتهما وحريتهما ولم يمنع اختلاف العناصر فيهما من اتفاق كلمة كل منهما على الثانى فى

حب الكمال بحيث أصبح فى أهلها عادة وجبلة وغدتا نموذجاً ينقل عنه حتى أرقى شعوب أوربا كمبا فى المدينة من مجاوريهما كما هو الحال فى البلجيك فانها بين ثلاث ممالك هى مصدر لمدنية انكلترا وفرنسا والمانيا. وسويسرا وهى بين أربع المانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وكل هذه الممالك الكبرى تغبط تينك المملكتين الصغريين على أوضاعهما واستعدادهما . بلاد البلجيك مؤلفة من عنصرين مختلفين فى الاصل وهما العنصر الفلاندرى أو الفلامندى سكان الشمال والعنصر الفالونى سكان الجنوب وهم فرنسيس يجيدون التصوير والآخرون الموسيقى [1] ولكن بلاد الموسيقى لاتحملهم فتقبلهم فرنسا وأيطاليا والمانيا وأسبانيا وحال البلجليك مع الدول المجاورة حال سورية مع غيرها على عهد الاتراك فقد كانت هذه البلاد تضيق على رحبها بابنائها فيهاجرون الى القارات الخمس فى طلب الرزق ولكن أين مساحة بلاد البلجيك من مساحة بلادنا [2]

والنزاع بين الفلامنديين والفالونيين على أتمه بشأن اللغة فتجد الفلامنديين سكان الفلاندر من أحرص الامم على لسانهم وقد حاولت البلجيك بعد سنة ١٨٣٠ أن تفنلس الفلاندر فثارت هذه على كل ما أريدت عليه ولم تستطع ذلك بل احتفظت بروحها وأخلاقها وأفكارها وتقاليدها وعواطفها وأساليب تصورها قال شاريو : الامة بلغتها ومامن أمة بدون لغة . ولذلك تجد الجدال قائماً قاعداً فى فنلندا وبولونيا والنمسا والمجر وسويسرا وأسبانيا بل وفى كل مكان فى هذا الشأن

دعا نابليون الاول أرض بلجيك بانها ساحة حروب أوربا وسماها اليزه وكلو ساحة اختبار أوربا وسماها بعضهم مغرس بقولها ، كما سموا الاندلس حديقة زهرها، وكما أصبحت سويسرا بالعلم مصيف أوربا ومشتاها

قلنا إن اللسان منبع الخصام بين كثير من الامم المختلطة العناصر ومع أن فى

---

(١) بلجيكا الحديثة لشاريو H. Charriaut : La Belgique moderne

(٢) سويسرا الحديثة لدوزا A. Dauzat : La Suisse moderne

سويسرا ثلاثة عناصر وهى الالمانى والفرنساوى والايطالى وأربع لغات وهى الالمانية والافرنسية والايطالية والرومانشية فانها أشبه بفسيفساء من الشعوب تلاقت وامتزجت وتعاشرت ونشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية — أمر غريب لم يعهد له نظير فى امة من الامم وأغرب منه ان ثلاثة من فلاحى سويسرا يؤسسون هذه الجمهورية السعيدة منذ عشرة قرون فتبلغ بالعلم هذه الدرجة من الرقى وما أظن فى الارض أمة سعدت بحكومتها كالامة السويسرية ولا شعباً أكثر لطفاً من اهلها وهم فى غناهم واقتصادهم يعلمون الامم الغنية المقتصدة . وكان امتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى من آكد الاسباب فى هذا التركيب الغريب فاخذ السويسرى عن الالمانى صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة فى الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وصحة الحكم وحسن التقليد والظرف . ولم تصبح سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة فى حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية (١)

هذا مثال من تشدد الامم حتى الصغرى منها فى عادتها ولسانها فاحر بالعرب أن يحافظوا على شخصياتهم وكانوا فى القديم أشبه بأمة الرومان يفتحون البلاد ويدخلون اليها من عاداتهم وأخلاقهم ماهو فى استطاعتهم ويأخذون عنها ما ينفعهم ومالا غنة لهم عنه فاصبحت بلادهم مهد الوطنية السياسية فى أيامهم كما هى الحال اليوم عند الامم التى عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة فى رؤسها وأعظم مثال لها الامم الفرنسوية والالمانية والروسية والطليانية والاسبانية كما قال ديمولان فى كتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين : وكل أمة فى القديم والحديث تأخذ من غيرها ما يناسبها أو تدخله الاحوال فى روحها وجسمها على غير شعور منها فانا شاهدنا فى الاوربيين مثالا مجسما من هذا المعنى

قال جول هورى (٢) : يمكن ارجاع الامم الرئيسة فى أوربا الى ثلاثة عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر

(١) مجلة المقتبس ص ٢٦٩ و ٣٤١ م ٨

(٢) كتاب برلين لجول هورى Jules Hury : En Allemagne, Berlin

اللاتينى هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبرتقاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم والالمان والسويسريون والانكليز والسويدان والدانمركيون والهولانديون هم من الشعوب التويونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية وأن الامم التى كان تهذيبها العقلى من أصل لاتينى هى أعرق فى المدنية من غيرها ورثت الاقليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم فى إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية

ولما جاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التى افتتحتها . قال: وهذه الملاحظات تختلف ولا شك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلا فى ايطاليا آثاراً لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب ان قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظائم فى الاسبانيين ويقال بالاجمال ان هذا الجزء من أوربا الذى اشتقت السنته من اللسان اللاتينى وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ فى صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما مضى وثنية . واذا كانت الامم الجرمانية قاومت سلطة الرومان لم تتشبع بالمدنية الا مؤخراً دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية فلم تلبث فى الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحى أما مدنية الاسكلافونيين فهى أحدث المدنيات وأسرعها من سائر مدنيات الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الابداع والاختراع

* * *

ولو شئنا أن نعدد الامثلة من هذا القبيل لأصاب نفوس الحضور سأم ولكن اكتفينا بما أوردنا على مسامعكم برهاناً على تمازج أجدادنا العرب بأهل الغرب تمازجاً حمد الاخلاف عاقبته وأن جمودنا عن الاخذ بكل ما فى مطاوى مدنيتهم من الاوضاع أمر طبيعى يعد فى باب حبنا لوطنيتنا واذا كانت أوربا ظلت تتسكع فى دياجى الجهالة قرونا حتى صحت نيتها على اقتباس المدنية القديمة

الرومانية واليونانية والعربية أفلسنا نحن أسرع منها خطى ولقد رأيتنا فى قرن أو بعض قرن اقتبسنا طرفا صالحا لا يستهان به من علوم الغرب وقوانينه فى ترتيباته ومصطلحاته . وهاك الآن جملة لامام العرب فى النقل والعلم أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله فهى فصل الخطاب فى هذا الباب استمعوا اليها بقلوبكم فانها مثال العلم الناضج منذ أحد عشر قرنا وانموذج البيان العربى أذكرها لا على سبيل التفاضل بين الامم بل للعبرة والحكمة

قال الجاحظ فى رسالته الى الفتح ابن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة إن كل أمة وقرن وكل جيل وبنى أب وجدتهم قد برعوا فى الصناعات وفضلوا الناس فى البيان أو فاقوهم فى الآداب أو فى تأسيس الملك أو فى البصر بالحرب فانك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية إلا أن يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التى تقابل تلك الامور وتصلح لتلك المعانى لان من كان متقسم الهوى مشترك الرأى متشعب النفس غير موفر على ذلك الشىء ولا مهيأ له لم يحذق من تلك الاشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين فى الصناعات واليونانيين فى الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذاكروه فى موضعه وآل ساسان فى الملك والاتراك فى الحروب . الا ترى أن اليونانيين الذين نظروا فى العلل ثم لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكفهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحة ولا بناء وغرس ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكد وكانت الملوك تفرغهم وتجرى عليهم كفايتهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوى وافرة واذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والادوات والملاهى التى تكون جماما للنفس وراحة بعد الكد وسروراً يداوى قرح الهموم . فصنعوا بعد المرافق وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات وكالكونيا والكشتوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطب والهندسة واللحون وآلات الحرب كالمجانيق والمرادات والرتيلات والدبابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويخرطون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون فى العلم ويرغبون عن العمل . فاما سكان

الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج والخط ورفق الكف فى كل شىء يتولونه ويمانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل لان أولئك حكماء وهؤلاء فعلة وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما فى أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذى يورث التبليد (ترك الاتجاه لشىء) والثروة التى تحدث الغرة ولم يتحملوا ذلا قط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (أى ركوب الندى الارض وركود الريح وكثرة الندى) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم أذهان حداد ونفوس مفكرة فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المناقب والمثالب — بلغوا فى ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الامم أفخر ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولا الفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية غلات ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعانى والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها — أحكموا ذلك الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم

وحديثهم وسمرهم فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزلنا وكآل ساسان فى الملك والسياسة قال الجاحظ وليس فى الارض كل تركى كما وصفنا كما أنه ليس كل يونانى حكيما ولا كل صينى فى غاية من الحذق ولا كل اعرابى شاعراً فائقاً ولكن هذه الامور فى هؤلاء أعم وأتم ، وفيهم أظهر وأكثر اه

وقال الجاحظ فى فخر السودان على البيضان يميز بين اليهود والصينيين : وأما الهند فوجدناهم يقدمون فى النجوم والحساب ولهم الخط الهندى خاصة ويقدمون فى الطب ولهم أسرار بالطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تجد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهى أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها ولهم الرقى النافذة فى السموم وفى الاوجاع ولهم غناء معجب ولهم الكنكلة وهى وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضاً كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب فى الفلسفة والادب وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة ولهم رأى ونجدة وليس لاحد من أهل الصين مالهم ولهم من الرأى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرن والسواك والاحتباء والفرق والخضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى نسائهم تضرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندى الذى لا يعد له عود ومن عندهم خرج علم الفكر وما اذا يكلم به على السم لم يضر وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة .

هذا أجمل وصف للأمم القديمة فى الحضارة وما امتاز به الأبيض والأصفر والأحمر والاسود والفروق لا ترتفع من بين الأجيال الا بالتربية والتهذيب والعلوم الأدبية الصحيحة وتبقى كل أمة فى العاقبة على مالا غنية لها عنه وهو من دواعى أفقها وتاريخها — والرجاء معقود بأن يكون الدور الجديد الذى تدخل فيه العرب اليوم دور التجدد والنشوء الاجتماعى الكبير فننبذ كل مالا يمس

أصلا من أصولنا القديمة و نقبل كل جديد فيه النهوض والاعتلاء وأن يعطينا الغرب القدر الذى أخذه من علم أجدادنا نستعين به على قيام أمرنا فان الأيام دول والدهر بالناس قلب حول فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو القابض الباسط المعز المذل .

ارتقاء العرب وانحطاطهم (١)

بحثت الأمم المتحضرة منذ الزمن الاطول فى الاخلاق وكان لمؤلفى العرب حظ وافر فى هذا الموضوع شأنهم فى أكثر العلوم التى عالجوها ونجحوا فى الخوض فيها .

وأكثر العلماء على أن الاخلاق تصلح بالتعليم والتربية ولا سيما ما كان منها مستفاداً بالعادة والتدرب ، وليس من الغريزة فى شىء ، فان من غلبت عليه السوداء أو الحدة مثلا لا يطمع فى استصلاحه الا بطول الزمن والتوفر على المعالجة والمرء ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . ومن قال ان الخلق طبيعى لا يخرج الانسان عن أحكامه فقد قال على رأى ابن مسكويه بابطال قوى التميز والعقل ورفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين وبترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم .

لا جرم أن للأقليم كالحرارة والبرودة والاعتدال والخصب والقلة تأثيراً كبيراً فى الطباع وهى من جملة العوامل فى ارتفاع الامم وتدليها ولكن ما ينقص بتأثير المحيط والبيئة والهواء قد تجبره التربية .

فقد رأينا العرب قاموا من جزيرتهم وهى فى غاية الحرارة وكانوا نصف متمدنين فانثالوا على الشرق والشمال ففتحوا فارس والشام ومصر وغيرها ولم يعقهم عائق من اقليمهم وحرارته واوغلوا عليهم . رأيناهم وقد طهر الاسلام من اخلاقهم وهذبهم وعلمهم الصبر والمضاء والرفق والتسامح والترفع عن الدنايا فنشروا فى البلاد المغلوبة فى سنين قليلة دينهم ولسانهم على صورة لم يكد يسبق لها مثيل فى العالم . ولا نذكر أنه كتب لأمة أن غلبت وعمت بمثل هذه السرعة فقلبت وجه الأرض وأطاعتها العناصر والاديان المختلفة فى آسيا وافريقية وأوربا

(١) محاضرة القيناها بدمشق على جماعة المعلمين والمعلمات فى مدارس الحكومة

فلو كان للحرارة فى قيام الأمة أو الفرد كل مايدعيه بعضهم من التأثيرات لما انشأت العرب مدنيتها ولا ارتقعت فى الارض قروناً كلمتها . قال بنتام صاحب روح الشرائع : الظاهر كل الظهور ان سكان البلاد الحارة أقل قوة ونشاطاً من سكان البلاد الباردة وحاجتهم للعمل أقل لخصب أرضهم وهم أميل الى العشق واللذات تبادرهم مظاهرها

وهذا القول لا يصح على اطلاقه لأن التاريخ قد أتى بأمثلة كثيرة قديما وحديثاً على نقض هذا الرأى فالعرب فى القدماء واليابان فى المحدثين أكبر دليل على نقض قول بنتام واذا كان للهواء بعض التأثير فى النشاط فان للبرودة تأثيرات أخرى تعوق العقل الانساني عن كل ما ينتظر منه . واذا قيل ان شمالى كل مملكة فى أوروبا وأميركا أرقى مدنية من جنوبها فى المادة فلذلك عوامل أخرى تاريخية وسياسية فيما نرى واذا كان شمال فرنسا يتقدم جنوبها من حيث الارتقاء وشمال ألمانيا وشمال ايطاليا أرسخ فى المدنيـة من جنوبها وأميركا الشمالية أعلى كعبا فى هذا المعنى من أميركا الجنوبية فقد رأينا جنوب أوروبا على عهـد الرومان والعرب يتقدم شمالها بل رأينا جنوب بلاد العرب أرقى من شمالها على عهد عز الأمة العربية ، وهذا يرجع الى الحكومة فى أغلب الحالات واتخاذ البلد الفلاني مركزاً لتتوفر العناية به وبأهـله فتتناول المدنية الأقرب فالأقرب من نقطة دائرتها .

فالقول بأن شعوب البـلاد الحارة يحكم عليها اقليمها فلا تقوز بكبير أمر فى المجتمع الانساني قول فيه نظر لأن العقل والتهذيب اللذين بهما حياة الممالك وسقوطها ينشآن من البلاد الحارة كما ينشآن من البلاد الباردة .

ولو اقتضى أن يكون سكان كل بلاد باردة راقين فى مناحيهم وحضارتهم لاستلزم أن يكون سكان سيبريا أرقى من سكان انكلترا ولو كان أهل كل بلاد حارة منحطين لماشاهدنا المصريين اليوم أصبحوا بالتربية فى أربعين سنة يشبهون الراقين من أهل أوروبا وأميركا بل ولترتب على ذلك أن يكون سكان جنوبى أفريقية وأكثرهم من جالية هولاندة منحطين مثل جيرانهم السودان لغلبة الاقليم على طباعهم بعد بطون وأجيال .

قال فوليه الفيلسوف الفرنساوى : لقد خرج كثير من الشعوب الفاتحة من البلاد الحارة مثل العرب على عهد عمر وعثمان وكذلك الموحدون والمرابطون أما القول بأن البلاد الحارة تولد القسوة على رأى مونتسكيو فقد شوهدت القسوة ماثلة للعيان فى تاريخ عامة بنى الانسان . رأيناها متجلية فى اليونان ورومية وايطاليا واسبانيا وانكلترا وروسيا كما ظهرت فى مصر وأشور وفارس . ولقد سكن الاسكيمو فى بلاد بادرة فكانوا أكثر توحشاً من الذئاب والدببة التى ملأت صحاريهم . اه

بغداد من البلاد الحارة نشأت فيها مدنية عربية مدهشة ولما انتظمت حكومتها وحسنت تربية سكانها أفاضت النور على الارض كلها فعد عصر المأمون فيها من العصور الزاهرة بكل العلوم والصناعات كما عد عصر بركليسى فى أثينة وعصر أغسطس فى رومية . وتعد القسطنطينية من الأقاليم الباردة المعتدلة حاول محمد الفاتح أن ينشىء لها مدنية مع ما كان فيها من أثر لايستهان به من بقايا عز قديم فلم يوفق الى ذلك فغلبت طباع الترك طباع الاقليم . والترك أمة صربية لم تعهد للترقى الحقيقى عصراً وكانت قرائح أبنائها محصورة على الدوام فى الحرب فقط فلما كانت الغلبة لهم والفتوح مواتية والعيش رخاء لم يتأدبوا بأدب النفس ولم يدخلوا فى التربية الصحيحة من أبوابها فلذلك لم تستقم لهم حضارة ثابتة وقضي الترك على آخر آثار مدنية البيزنطين يوم حلوا محلهم واستولوا على تراثهم كما قضوا على البقية الباقية من مدنية العرب وغيرهم من الامم ذات المجد المعتبر ولم يتيسر لهم وياللاسف اقامة شيء جديد وليس الذنب فى ذلك كله على طباع رسخت فيهم بل العيب كل العيب على نظام حكومتهم وغلوهم فى تكبير رقعة مملكتهم مع سوء ادارتهم فقد رأينا شعوباً أحط منهم جنساً أنشأوا لهم مدنية وأحسنوا لمن انضووا تحت رايتهم على الاغلب أما الترك فكان رائدهم فى فتوحاتهم الغزو واستجلاب الغنائم ففتحوا بلاداً يستحيل عليهم ان يخضعوها لسلطانهم أبد الدهر لان أهلها أرقى منهم مدنية وعنصراً ولا يرجى أن يكونوا منحطين عنهم أبداً . وفى تاريخ استيلاء الترك على المجريين واليونانيين والرومانيين والصربيين والبلغاريين وفى

حالة هذه الامم على عهد الترك وحالتها بعدهم أكبر دليل على أن العبرة فى الفتوح بالاخلاق الفاضلة والطباع اللينة واقتباس النافع من أسباب النشوء والارتقاء بالقوس والنشاب والمدافع والحراب

حكى لى أحد قناصل فرنسا على عهد العثمانيين فى هذه الحاضرة انه كان قنصلا فى طرابلس الغرب وكان صديقاً لاحد كبار عمال الاتراك هناك وكان هذا لا يفتأ يطعن فى العرب ويبدى الاشمئزاز من حالهم . فلما عيل صبر القنصل الفرنساوى وكان محباً للعرب يعرف لسانهم وتاريخهم ومدنيتهم فاتح صاحبه ذات يوم بالأمر وسأله عن سر كراهيته للعرب فأجابه العامل التركى انى لا أعرف لذلك سبباً الا ما أراه من انحطاطهم . فقال له : سامحك الله ان العرب استولوا قروناً على كثير من البلاد التى استوليتم أنتم معاشر الترك عليها كما استولوا على غيرها ، وها هى آثار مدنيتهم ظاهرة الى اليوم من بلاد اسبانيا الى بلاد الصين وأنتم قد حكمتم قروناً أيضاً فأين مدنيتكم ان لم تكونوا قضيتم على حضارة من سبقوكم وخربتم العامر منها فاذا انحط العرب فبسياستكم أنفسكم . فدهش العامل التركى ولم ينبس ببنت شفة ورجع عن النيل من العرب .

وعندى ان ذاك العامل لو درس ولو قليلا لغة العرب وتاريخهم لما بدا منه هذا السخف فى اسقاط أمة عظيمة جديرة بالتجلة . وهيهات أن يلبسها غير صورتها الحقيقية بمجرد ثرثرات يلوكها وترهات يدلى بها .

ومثل هذا العامل اذا تولى ولاية وكان ذا ارادة قوية يؤخر من تحت يده ولا سيما اذا كانوا عرباً عقوداً من السنين الى الوراء ، وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة وقعت لى بالذات مع وال من ولاة دمشق على عهد العثمانيين وكان ثرثاراً مثل أكثر عمالهم تظنه لأول وهلة على شىء من العلم والفهم حتى اذا مادرست أخلاقه وجدته قاسياً جاهلا ليس عنده شفقة ولم تتشبع روحه بالتربية الفاضلة وعلمه طلاء كالقصب الذى يعلقه على صدره ليتراءى لك لاول أمره ذهباً ابريزا . كتب الى قائم مقام عجلون مرة يقول لى إن أهل قضائه عزموا على ان ينشؤا ستين مكتباً أهلياً لتعليم أحداثهم وانهم جمعوا لذلك المال فهو يرجو ان انتخب له ستين معلماً فشرعت أبحث مدة ثلاثة أشهر عن كفاة يليقون للتعليم فلم أجد سوى ثلاثة

عشر ولما عزمت على تسفيرهم من الغد أخذتهم الى الوالى وذكرت له قضيتهم ليطلع على الامر قبل أن يطلعه عليه جواسيسه فكان أول سؤال سألهم اياه هل تعرفون التركية فلما أجابوا بغير الايجاب امتقع لونه والتفت الي قائلا : وكيف ذلك فقلت له : أرجو أن يتعلموا ومهمتهم الآن تعليم أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والكتابة والحساب والامور الدينية فقط فسكت وانصرفنا . وبعد ساعتين اتتنى برقية من قائم مقام عجلون يتوسل الى أن لا أرسل المعلمين بعد ان كان يلح فى ارسالهم فعلمت عقيب ذلك ان الوالى أبرق لعامله فى جبل عجلون بعد خروجى من عنده يلومه على اعتماده علىّ فى انتقاء معلمين لمدارس أهلية . ولما عاتبت الوالى فى أحدى العشايا قال لى : وهل أنت وكنت تظن أن الدولة تعطيكم سلاحاً تقاتلونها به . ان من سياستنا ان لا تتعلموا . فتألمت نفسى وأقسمت فى سرى أن هذه الدولة لا تدوم وكل دولة تعد جهل الامة سلاحها فى التحكم برقاب من تحكمه تهلك وإياهم . والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

رجع الى العرب ومدنيتهم — وان أخلاقهم كانت سبباً فى علوهم فلما فسدت فسدوا وتراجع سلطانهم فقد ذكر المؤرخون ان العرب أسسوا أيام جاهليتهم ممالك صغرى فى العراق والشام وانتشروا خلف شبه جزيرتهم ومنهم من سكن بوادى مصر وملكوا بالارث جميع صحارى أفريقية منفصلين من أعلى شمال آسيا برمال كالبحار أمنوا بها هجمات الفاتحين وانفردوا بحريتهم وعظمتهم لجلالة أصولهم وشهامتهم وفصاحة لغتهم الباقية على نقائها واتجروا مع من يأتى الى مراكزهم من تجار الجنوب والمشرق واكتسوا معارف من جاورهم من الامم فكانت الامة العربية متغلبة على من جاورها مدة أربعة آلاف سنة

قال سيد يلبسو صاحب تاريخ العرب : وبما انفردت به الامة العربية من جميل الأخلاق والعادات كانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأمورها متأهبة للاغارة على مجاوريها فقد استولت على مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الأجنبية وانحصرت سلطتها فى مملكتها الأصلية فأخذت تحارب الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش ملك الفرس

والاسكندر المقدونى وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان العالم القديم ثم جاء النبى (عليه الصلاة والسلام) فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنهم حتى امتدت سلطنتهم من نهر التاج (المار باسبانيا والبرتقال) الى نهر الكنج (أعظم أنهار الهند) وانتشر نور المعارف والتمدن فى المشرق والمغرب وأهل أوروبا اذ ذاك فى جهل القرون الوسطى وكأنهم نسوا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان

وقد عنى العباسيون ببغداد والأمويون بقرطبة والفاطميون فى القاهرة بنشر العلوم والفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية ولم تبق لهم الا السلطة الدينية التى استمرت لهم فى سائر ارجاء ممالكهم وكان لهم من العلوم والصناعات والاكتشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها ، فقد العرب فى أواخر القرن الثامن بعد الميلاد حماستهم الحربية وشغفوا بالمعارف فما لبثت قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقة واصفهان وسمرقند تناظر بغداد فى الأخذ بأسباب العلوم والمعارف ، وقرىء ما ترجم الى العربية من كتب اليونان فى المدارس الاسلامية وبذل العرب همتهم فى الاشتغال بجمع ما ابتكرته العقول البشرية من العلوم والفنون واعرفوا فى معظم البلاد خصوصا فى الاصقاع المسيحية من أوربا بابتكارات تدل على انهم أئمة المعارف وقد مارسوا العلوم الصحيحة على غاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر (من سنة ٢٨٨ — ٩٠٧ هـ)

وقال جيون فى كلامه على حماية المسلمين للعالم فى الشرق وفى الغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشرا فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد (المدرسة النظامية) وجعل لها من الريع ليصرف فى شؤونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع

فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة

ذلك رأى سيديليو فى العرب وأخلاقهم وما نشأ عنها وهذا رأى جيون وإعجابه بحد نيتهم فاذا وقع لتلك النفوس الأبية وذلك العمران المستمر ، لا جرم ان لانحطاط الشعوب عوامل كثيرة طبيعية وأخلاقية وبهذه العوامل أصيبت الأمة العربية كما أصيبت الأمة الاسبانية . فالعرب والاسبان يتشابهون من وجوه كثيرة . نشأ العرب كالاسبان من شبه جزيرتهم فى الجنوب الغربى من أوربا وأولئك نشأوا من شبه جزيرتهم فى الجنوب الغربى من آسيا . العرب فتحوا بلاداً كثيرة ومنها البعيد الذى وزعوا قواهم فى استصفائه وادارته وكان يفصلهم عنها البحر ففتحوا الأندلس وصقلية بل وجميع الجزر الكبرى فى جنوبى أوربا كما توسع الاسبان فى فتوحهم على عهد شارلكان فحكموا جزءاً مهما من أوربا ثم ركبوا البحر فاستعمروا معظم بلاد أميركا الجنوبية . ولو تأملنا عوامل الانحطاط التى فعلت فى الاسبان لاثبتنا لها مثالا فى مجتمعنا فقد ذكر توليه ان العنصر الاسبانى أصيب بما استنزف دمه وصرف من قواه كل طاهر وحى وكثيراً ما أتت عليه أدوار هلكت فى خلالها عناصره الحية وطبقاته العالية فان ديوان التفتيش الدينى قضى على كل من كان من ايمان ومعتقد خاص وفكر مستقل وارادة لا تقف أمام ما فيه المصلحة ووجدان لايلتوى ولا يتحول وعلى ذلك العهد وبسوء هذه السياسة تداعت كثير من البيوت والأسر ، ومنها ما كان بنوه من أهل الطبقة الممتازة بقرائحها وعقولها فدعا فقدها الى انقراض الصناعة والعلوم والآداب .

ولقد استعملت اسبانيا أقصى الشدة فى قصاص من خالف دينها الذى تعتقد به ثم أخذت تختار ممن تعدهم مؤمنين أناساً هم من أذكيائها وتقضى عليهم بالتبتل والترهب فلم يولد لهم واندثرت أنسالهم وذراريهم . وما من زمن جاء على اسبانيا كان فيه السعد والرغد والحياة والنماء على حصة موفورة أكثر من أيام الرومان ومن غيرها على عهد الحضارة العربية فى القرون الوسطى فكان اذ ذاك فى اسبانيا أربعون مليوناً من النفوس أرباب صنائع وأهل عمل وفى تلك الايام

قامت فيها المدن الكبرى الجميلة التي لم نبرح نعجب بحسن هندستها وندهش بخرائبها وعلى ذلك العهد كانت زراعتها ناجحة وبفضل هندسة العرب كان الماء يجرى الى كل مكان فى فلوات اسبانيا وقفارها

ثم نشبت حروب شارلكان التي جن بها وأهلك من الاسبانيين كل قوى الشكيمة فى سبيلها وكذلك ما تذرعت به اسبانيا من فتوحاتها فى أميركا وهى فتوحات فقد منها المحاربون الاشداء أصحاب العزائم والارادات القوية ثم ان طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) وطرد العرب أجمع (سنة ١٦٠٩ — ١٦١٠) قد حرم اسبانيا من شعب عامل نشيط . وفى أساطير الشعب الاسبانى ان اسبانيا طلبت الى الخالق منذ البدء سماء جميلة فنالتها وطلبت بحراً جميلا فرزقته وأثماراً طيبة ونساء حساناً ففازت بهما ولما طلبت حكومة صالحة رد قولها لانها اذا تم لها ماتريد تصبح جنة أرضية لامحالة . قلنا وهكذا كان شأن الشعب العربي تفرق فى جنوبى أوربا وشمالى أفريقية وغيرها وجاءت عليه سبعة قرون وهو السائد فى العالم بسياسته وعلمه وصناعاته وآثاره فكان قوله الفصل وسياسته هى الرشيدة فلما أخذ بعض ملوكه يحاربون العقل ويعادون الفلسفة بل يقتلون أهلها وجدوا بأن أوصدوا باب الاجتهاد فى كل شىء وزهدوا فى الصنائع النفيسة مدعين أنها مما يحظره الشرع مع أن الشرع مرن يليق لكل عصر ومصر . تسربت اليهم الخرافات فانشاؤا يعتقدون بالقضاء والقدر على خلاف ما كان يعتقده أهل الصدر الأول فقل فيهم أرباب البصيرة وضعفت فيهم الأسر الزكية . ثم ان الحروب والفتن الاهلية والخارجية التي تنازعتهم قروناً قد هلك فيها أناس من أهل الطبقة النبيلة فيهم ، ومنهم من لم يعقب والغنى الذى خلف أولاداً فطروا على الترف والرفاهية فاسرفوا فى أموالهم وقواهم فى الموبقات فدثروا ودثرت أنسالهم — ومما عاق مجتمعنا في ميدان الترقى تسلط رجال الدين على جمهور الشعب وعلى أكثر الحكومات زمناً طويلا فساقوها الى دركات التأخر بحسب أهوائهم وضعف مداركهم وعلمهم الناقص ومن رجال الدين والقضاء من ليس لهم من العلم الا العمائم ومن الأخلاق الا اختراع الطرق السافلة لاخذ الأموال بالباطل . وما برحت

الحكومات التى تسلطت على العرب تقرب عن قصد الجاهل من أهل تلك الطبقة على العالم فيعبث الجاهل بالمقدسات ويستحل المحرمات عن علم وعن غير علم حتى جاء زمن على الامة كانت فيه جاهلة متعصبة فقيرة ذليلة متسفلة فى أخلاقها وعاداتها .

ومن عيوب الحكومات التى استولت علينا وكان أثرها ظاهراً فى الاخلاق اعتماد الناس على الشفاعات والمصانعات والرشوات حتى كان الملك نفسه اذا لم يهد اليه عامله هدية يريدها يعزله أو يقتله فكانت الامة من أرقى رجل يحكم فى أرواحها الى أدنى الطبقات فيها بين راش ومرتش وسارق ومسروق فضعفت ملكة الشمم وعزة النفس والمفاداة والأمل وحل مكانها الذل والكسل واليأس ثم ان تلك الحكومات المشؤمة لم تنظم شؤونها ولم يكن لها تسلسل فى أفكارها فما كانت تقرره وتعتمد عليه من القوانين زمن الحاكم الفلانى يأتى خلفه فينقضه من أساسه ويبتدع غيره ولذلك لم يقم لها عمل يذكر من أعمال العمران لان حكامها يحكمون باذواقهم فهم أبداً مابين مبرم وناقض يعبث الخلف بما تعب فيه السلف .

ومن جملة الأمور التى عمت بها البلوى فساد نظام البيوت بتعدد الزوجات والاكثار من التسرى على غير داع ففسد كثير من الأسر ونغلت نيات الأولاد وقل تبادل الحب بين أبناء الأب الواحد وانحطت التربية ولم تنتقل ثروة قروناً من الاجداد الى الاحفاد حتى ولو وقفها صاحبها الأول اذ يجىء أناس من بعده يستحلون أكلها وتغيير شرطها . ثم ان التربية الاتكالية تأصلت فى الأمة حتى لاترى فيها على الاكثر الارجلا يفكر فى الطرق القريبة للاثراء والراحة فان كان ابن ذى نعمة ينتظر منذ وعيه على نفسه أباه أو أمه أو مورثه حتى يموت فيستمتع على هواه بالمال من دون تعب ويطلق لشهواته العنان والغالب أن ابن الموسر لايعمل ولذلك قلما دامت ثروة هنا ثلاثة بطون وقلما رأينا شبانا يعتمدون على أنفسهم فى تحصيل الثروة ويعدون الماهر فيهم من يساعده التوفيق فيتزوج من فتاة عندها مال غير ناظرين الى شروط الزواج بين المتزوجين . ولحفظ الثروة رأت بعض الاسران تتساهل فى تزويج الاقارب فتزوج شبانها من بناتها حتى ضعف النسل وكثر البله والزمنى والمرضى فيهم وربما عضل كثير من الناس بناتهم

ومنعهن عن الزواج استبقاء للارث فى الذكور دون الاناث وكثير من الاسر تحرم الاناث ارثهن وتعاملهن معاملة البهائم ولذلك تعطل جانب عظيم من الامة وهم النساء وظلمهن الرجال أى ظلم فلم يفكروا فى تعليمهن حق التفكير ولا فى سعادتهن الحقيقية كأن المرأة خلقت بلا نفس كما كانوا يعتقدون فى القديم فى بعض بلاد الافرنج

ومن دواعى الانحطاط أن الهمة فى الفرد عندنا لا تنبعث الى أقصى حدودها فاذا تذوق المتعلم لماظة من العلم يظن من نفسه الغناء فى كل علم ويكتفى بما لقنه فى صغره فلا يعمد الى البحث والنظر وتنمية معلوماته وايجاد الجديد واختراع المفيد بل يعتقد أن العمل كله فى المدرسة فاذا انتهت أيامها فليس له الا الراحة واستثمار ماتعلم فجاء متعلمونا وسطاً فى كل شىء . والوسط لا يعمل عملا فى هذا المجتمع البشرى . وكذلك الحال فى الصانع والماهن والزراع فأصبحنا أمة لا ترى فينا مالياً متفنناً ولا زارعاً من النمط الاول ولا رساما نابغة ولا نقاشاً ولا كيماوياً ولا ميكانيكياً ولا غير ذلك ممن تشتد حاجة العمران الى تكثير سواد العاملين فيه ولذلك ندر فينا النوابغ وانقطع سند هذه العلوم من الامة فجاءت عليها قرون وهى تحسب أن العلم كله محصور فى بعض العلوم الدينية واللسانية وعندهم ان من روى حديثاً نبوياً أو شارك فى مسألة من فروع الفقه أو قرض بيتين من الشعر عد محدثاً أو فقيهاً أو أديباً

ومن بواعث تدلينا فى سلم الاجتماع اننا لا نحسن العشرة ولا نحسن الاجتماع وذلك لاختلافنا فى طرق التربية لأن ابناء الوطن الواحد لا يرمون فى تعاليمهم الى مقصد معين فاذا حللنا تحليلا كيماويا دقيقاً نجد الامراء المتعلمين منا لا بأس بهم بالنسبة للمجموع هنا بل بالنسبة للمتعلمين من الغربيين ولكن اذا جئت تنظر فينا مجتمعين تكبر علينا أربع تكبيرات ولذلك جاء كل عمل يقدم بعناية الجماعة عندنا منحطاً أكثر من عمل الفرد على خلاف سنة الامم . من أجل هذا لم تنشأ لنا حتى اليوم جمعيات ولا مجامع ولا مجالس ولا شركات تجمع من القليل كثيراً وتضم متفرق القوى ومشتت القرائح والافكار فتحيى المعالم وتفيد البلاد فى اقتصادياتها ومعنوياتها . هذا القول فى الرجال فما الحال بربات الحجال

اللاتى ضاهين فى الغرب الرجل فى علمه وعمله الا قليلا وانحططن عندنا أى انحطاط بعد ان كان منهن عندنا المفسرة والمحدثة والراوية والشاعرة والاديبة والطبيبة والواعظة والخطيبة المؤثرة

قال صاحب روح الشرائع : اذا أردت أن تعرف ملكات أمة من الامم مادية كانت أو أدبية فارجع الى إدارة التربية فيها وتوزيع الخدم ونشر المكافأة وتوقيع العقوبات تعلم ماتريد . وقال انظر الى بلد كثرت فيها المظالم وامتد بقاؤها وارتفعت ثقة المالك فيما ملكت يمينها ترى الزارع تسقط همته وتنحل قوته وان استمر على الزراعة فلكيلا لايموت جوعا كانما يطلب من الكسل مسلياً على آلامه ومصائبه وكذلك تسقط الصناعة لسقوط الامل فى النجاح وينبت الشوك فى أجود الاراضى

وقال فوليه : لنشوء الشعوب على ما أبانه الدروينيون طريقان : الجماعة والانتخاب الطبيعى فالشعب فى الحاله الاولى خاضع لتأثيرات متشابهة من المحيط والاقليم وفى الحالة الثانية يعيش فيه بعض أفراد فقط يكون نظامهم الخاص عونا لهم على التمثل والاحتذاء فيعيشون ويتركون لهم أنسالا وهكذا يتحول المجتمع باطراح بعض الاسرات وبعض العناصر الخاصة ويعمل الانتخاب الطبيعى على كل سرعة أكثر من المحيط والاقليم ولكن يهلك فى سبيله كثير من الخلق فلا يتوهم متوهم أن شعباً ينتقل بمجموعه من الشباب إلى سن الرشد ثم الى الشيخوخة بل ان الشعب يرتقى بواسطة الانتخاب الطبيعى وتحكيم الصفات التى تحمى الافراد ومتى ظهر الهرم والسقوط تصبح أحسن مقوماته وقد داهمتها عناصر أصغر منها ونزلت منازلها

قال : وعوامل الانتخاب الطبيعى التى تجرى بين الشعوب المختلفة هى الحرب والاستعمار ونمو السكان والمنافسة فى التفوق الاقتصادي والسياسى والعلمى .

أما عوامل الانتخاب الطبيعي التى تفعل فى نفس الامة فهى الحرب والخدمة العسكرية وتنقل الافراد فى ربوع الوطن الواحد ونحو سكان المدن وعقوبة المجرمين ومعاونة الفقراء والمحاويج وتشريد المسيئين للدين أو لغيره واضطهادهم وانتشار الشفاعات السياسية كأن لايحمى صاحب الشأن غير جماعته وجملة حاشيته

والنفور السياسي والفردية والشرائع والعادات والافكار الاجتماعية والدينية بشأن الزواج واجتماع الجنسين الذكر والانثى وارادة النهوض . هذه أهم العوامل التي تنمي أمة أو تقرضها وتحسن سيرها أو تسيئه

وبعد فان الناظر في ماضي الامة العربية وحاضرها يدهش للفروق الكثيرة المحسوسة وعند ما يشاهد جراثيم النهضة وعوامل الحياة تنشر وتدب في جسمها اليوم يعتقد بان الحاضر سيكون على مثال الغابر أو أجمل منه وعلى طريق نافع والامل معقود في هذا الشأن على المعلم والمعلمة فقد قيل : لولا المربي ما عرفت ربي .

لاجرم أن الغيور على قوم ينادي بكل نفيس ليحمل اليهم الخير والكامل من سعى الى تكميل غيره وان كان ناقصاً والجاهل في ذمة العالم له عليه حق التعليم والاشتراك في النعمة .

أنتم أطباء أرواح . والارواح تفضل الاشباح . فهل عهد طبيب لا يعالج حتى عدوه بما يصلحه وينفعه في صحته دع صديقه وأخاه وابنه وابنته . بايديكم إصلاح هذه النفوس الضعيفة المنحطة في معارفها وتربيتها وترقية مستوى البيوت وثقوا أن فتى واحداً وفتاة واحدة اذا تعلم وتهذب يدخل على أسرة كبيرة النظام وفي الجملة يلقنها الشعور بالحاجة الى التعلم أي أنه يسوق آله الى أول مراتب الكمال وكل هذا العمل الجليل هو عمل المعلم والمعلمة لا محالة .

وربما كان واجب المعلمة في هذا الشأن أعظم من واجب المعلم لان مجموع النساء عندنا في الغاية من الانحطاط ولا عبرة بالقليلات المتعلمات منهن وأكثر ما تعلمن حتى الآن قشور ولم ينفذن فيه الى اللباب على ما يجب . وأي وطني لا يبكي لجهل المرأة المسلمة علة العلل في انحطاط المجتمع الاسلامي ومن منا ينكر تأثير المرأة في كل نهضة . وهذه المرأة المصرية والمرأة التركية قد أتيا في الحوادث الاخيرة ما دل على أن القوم في القاهرة والاستانة أخذوا بخط وافر من العناية بالمرأة وما أحرانا في الشام أن نحتذي مثالهم وهذا قريب الحصول اذا قام المعلم والمعلمة بواجبهما حق القيام والسلام

اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق افراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد

ما خلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل مالا يألفون . فقد لقى المعتزلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من اعداء العقل كل شدة فى القرون الراقية ، وكان عقل الملوك هو الذى يحول على الاغلب بين الجامدين وبين ما يشتهون ، من الاعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل ، والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السنة والنقل . ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، يجدهم جروا على غير ما يعتقدون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقليل جداً من كان الاخلاص رائدهم فى اعمالهم ومآتيهم .

يقاوم فى العادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته ، ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه فى صناعته ، ومثيله فى فضيلته ، ويطعن الجامد الممخرق على من يحب أن يعبد الله بعقل ، ويبحث فى عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة ، وما أقواله الارياء ، وما افعاله الا وساوس وأهواء .

لقى المصلحون من الاهاويل فى الأمة العربية أكثر مما لقيه أمثالهم فى الأمم الاخرى فيما نحسب ، وخصوصاً بعد القرن السابع وقد توزعت بلاد الاسلام ملوك الطوائف ، وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لايهمهم الارضاء المشعبذين بالدين ، ليحولوا العامة اليهم فيقوى بهم ضعفهم ، ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم ، وبسط ظل سلطانهم على النفوس فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

ساعد على الانتقام من العالمين العاملين أناس من أرباب المذاهب سرت احكامهم بقوة أربابها ، فكان الحكم يجرى على المبتدعة وأرباب الاهواء يزعمهم بموجب قوانين لهم سنوها ، ومنها المذهب المالكى الذى كان بحكم قاضيه يقتل أكبر عالم فى الأمة — والقتل يعد من التعزير فى مذهب مالك — خالف المألوف من العادات التى اعتقدتها من أصل الدين ، وعد الخروج عنها كفراً والحاداً ، وما اسهلهم وأسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح المباحكين

سالت الدماء كالأودية فى بغداد للفتن بين الحنابلة والشافعية مرات ، وسالت دماء كثير من الخاصة فى كل قرن وعذبوا وأوذوا بواسطة أرباب المظاهر من المتنطعين ، ممن شق عليهم ان يروا كلمة الاصلاح الدينى والدنيوى تفعل فى الارواح فعلها المطلوب ، فحدثتهم أنفسهم ان يتساوى المفكرون وغيرهم فى نظر العامة ان لم يتمكنوا من اسقاطهم ، ليخلوا لهم الجو . ويقتصر فى تقبيل الايدى ، وطلب الدعوات ، والتماس البركات ، عليهم دون سائر المنتسبين للعلم والشريعة .

ومن غريب اسرار الله فى خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين دثروا ودثرت اسماؤهم ، وظلت اسماء من عادوهم وآذوهم تشهد بالجهل المركب على اعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة

أين اعداء الغزالى والسهروردي والآمدى وابن جرير وابن تيمية وابن رشد؟ ذهبوا كلهم كأمس الدابر ، وبقيت الامة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء المصلحين العاملين ، وتتناقل ما خطته أناملهم من سطور الاصلاح « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

لا يذكر التاريخ اليوم إلا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيح ، والنقل الصحيح ، اشتهروا لاحتكاكهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر دنيوى أرادوه وحطام من الدنيا تطالت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون أحدهم قاضياً يخاف أن يشركه ذاك العالم المستنير فى قضائه ، أو شيخ عامة حدثته نفسه بالاستئثار بهذا المظهر الذى يعتقده جماع فضائل الدنيا والآخرة .

أمثال هؤلاء المخرقين المنافقين ، بدلوا المعالم والتعاليم مرضاة لارباب الرئاسات والزعامات ، وسجلوا على أنفسهم العار للبت فيما لم ينزل به سلطان ، وجازوا حد الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤتمنون عليه ، ومنهم ومن أعمالهم يشكو ويئن كما تشكو المدنية والانسانية

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ان من يتظاهرون بالدين وباطنهم منه برىء أضر على الدين ممن يعقونه . ومن يدعو فى الغالب الى الاصلاح ويتخذ التقية أمام العامة درعه ، يكون أقرب الى الانحلال والضلال ، منه الى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه ، وعنهم يؤخذ ، وبهديهم يهتدى . وشر الناس من يسرون غير ما يظهرون ويتلونون باللون الذى يرون أنه أوفق لهم لجر مغنم ، واحراز مظهر

ان هؤلاء العامة ممن يتطاولون الى مقامات العلماء ، هم أفسد من العامة لأن شيطانهم يتكلم ، وشيطان هؤلاء أخرس لا يبدى ولا يعيد . هم سوس الفساد فى كيان هذا المجتمع ، يدعون معرفة كل شىء وهم لم يتقنوا شيئاً الا ما سولته لهم أنفسهم ، وحدثتهم به شياطينهم . شعارهم التدليس والتظاهر بالغيرة على المحارم ولو بحثت عن اعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمات الأديان والشرائع وهم يقدسونها بلسانهم ، والعابثين بحدودها ، وهم يدعون الناس الى الوقوف عند مراسيمها ، والسعاية بالمصلحين ليفتوا فى اعضادهم ، ويفسدوا عليهم أمرهم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره أبالسة التدجيل والتضليل من علماء السوء

لو كان اعداء المصلحين على شىء من التدين الحقيقى ، لكانوا اشتغلوا منذ القديم بارشاد العامة وانكار المنكرات الماثلة فى كل عصر أمامهم مثول الشمس فى السماء رأد الضحى . ولكن المتدلسة أمثالهم يتعلمون من قشور العلوم ما يستعينون به على الاخذ من اموال الحكومات والاغنياء والتغرير بالعامة ، ولذلك كان أكثر اشتغال من سموا أنفسهم بالعلماء فى كل عصر بالفقه ، لانه سلم الى ما يتطاولون اليه من الجاه والمال وحسن الحال

قال حجة الاسلام الغزالى فى الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله

تعالى فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام . اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء ، والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا اذا طولبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأي أهل تلك الاعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم واعراضهم عليهم فاشرأبوا لطلب العلم . توصلاً الى نيل العز ، ودرك الجاه ، من قبل الولاة فاكبوا على علم الفتاوى ، وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين ، أذلة إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله

وقد كان أكثر الاقبال في تلك الاعصار على الفتاوى والأقضية ، لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء ، من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فعلت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام ، فاكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات ، في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوي الدين ، وتقلد أحكام المسلمين ، اشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم ، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور ، من لم يستصوب الخوض في الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية ، المفضية

الى اهراق الدماء ، وتخريب البلاد ، ومالت نفسه الى المناظرة فى الفقه ، وبيان الاولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان واحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستمرون الى الآن ، وليس ندرى ماالذى يحدث الله فيما بعدنا من الاعصار . فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير. ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع امام آخر من الأئمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بان ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لامطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اه

هذا موجز من تاريخ المتجذلقين فى الدين ، وصف به حجة الاسلام طغمتهم فى عصره ، وعصره الخامس من أفضل عصور النور فى الاسلام ، فما بالك بامثالهم بعده وقد حدثت من الاحداث ماكان الجهل سداها ولحمتها ، والنيل من المخلصين مبدأها وغايتها ، وما أصدق ماقاله حجة الاسلام أيضاً فى هؤلاء الطغام أعداء الاسلام والسلام فى أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال : « وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيلة لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان ، أبالهام إلهى ، ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، أم بكمال علمى وانما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ، هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهوينا ، فاشتغل أنت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك . (وأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى)

وبعد فان في هذا العصر فئات في هذا الشرق ممن استهاذ منهم المصلحون في كل عصر ، ولكنهم ويالالأسف حثالة الحثالة ، ومثال الجهالة والضلالة ، ان قلت لهم تعاليم فلان ، قالوا لك أو نسيت تعاليم فلان فهي أحسن وأسلم ، وان حرضتهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل ، وان شرحت لهم أساليب المدنية ، قالوا اننا لم نؤت الا من قبل ديننا فتركناه فصارت حالنا الى ماترى ، وان حدثتهم بطرق الارتقاء قالوا انه يدعونا الى الانحلال كانه ما كفانا مانحن فيه من البدع ، وان دعوتهم الى الاخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام ، أوردوا لك من أقوال شيوخهم ، وأقاصيص عجائزهم ، وأحلام حالميهم ، ومثبطات المتزهدين والمتورعين منهم ، ماتسأل الله معه السلامة ، وان حببت اليهم المعروف ، قالوا لك ماأكثر المنكرات .

حملة أهواء ، لاحملة شريعة ، وجعاب لغو وحشو ، لاقوام على مايقوم العقل ، سلاحهم المغالطة ، ومجنهم السفسطة ، رأس مالهم الثرثرة ، وربحهم الغلبة بالباطل ، والمهارة في المهاترة على غير طائل ، مناهم من دينهم ودنياهم ، ان تفخم القابهم ، وتملأ كراشهم وعبابهم ، وترفع بين الغاغة منازلهم ، ويزيدوا بسطة في الجسم لافي العقل ، وتكتب لهم في العالمين شهرة بعيدة ، بدون ان يعدوا لها أداة من أدواتها ، ويصرفوا في التحصيل ساعة من أوقاتهم ، دأبهم الحط من الفضلاء ، وهجيراهم النيل من العظماء

يرقصون ويلفقون ، ويراوغون ويماحكون ، واكسون ما كسون ، مدلسون موالسون ، يعادون مايجهلون ، يجمدون على مايعرفون ، يصانعون ولا يتلطفون ، يفتون وهم لا يعلمون ، يجتهدون ويخطئون ، يهرفون بما لا يعرفون ، يعدون علوم البشر ذرة من معارفهم ، ويحتقرون مالا تبلغه مداركهم ، كأن فضل الله محصور فيهم ، وكأن من لايجرى على هواهم محروم من السعادة هالك ، أولئك هم ثعالب الانس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية ، ويمشون بين الناس بالنميمة والسعاية ، أسود ولكن على نحت أثلات مخالفيهم ، ثعور ولكن لايحسنون الوثب الا على من لايصلحون خدمة لهم . يفترون ويغرون يغوون ولايخافون ، يخربون ولا يدرون ، يخرفون ولا يستحون ، يمخرقون ولا ينتهون ، فهم أضر على

الناس من قطاع السابلة ، وأفسد فى جسم المجتمع من الادواء القتالة ، يرجعون بالامة القهقرى ، والدواعى تهيب بها الى التقدم ، ويزينون لها الفناء والعدم ، والمصلحة قاضية بالتماسك والتعاون ، ويملون لها الذل والصغار ، وركوب متن العار . والحالة تدعوا الى تحكيم العقل ، فى كل قول وعمل

فاللهم ثبت أقدام المصلحين ، وهىء لهم من الكفاية ما يقوون به على رد غارات أعداء الامة فى إصلاحها ، فقد كفاها جهلا وضلة بما كسبت أيدى المنافقين وما جلبوا عليها من الخزى المبين (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً)

تعليم اللغات [1]

ان تعليم اللغات على الطريقة التى جرى عليها الغربيون واقتبسها المشارقة قد تكون نظرية أكثر مما هى عملية ، فيطول أمرها ويصعب تناولها ، ولطالما رأينا من يترجم أشعار سكسبير الانكليزى أو بوالو الافرنسى ، اذا رمته الاقدار فى شوارع لندن أو باريز لا يطاوعه لسانه أن يلفظ كلمات يهتدى بها لوجه طريقه ذلك لان الطريقة فى تعلمه تلك اللغة الاجنبية هى عين الطريقة التي يستخدمها الاوربيون فى تعليم الصم البكم بل عين النهج الذى ينهجه المغاربة فى تعليم إحدى اللغات الميتة من لاتينية ويونانية ، أو إحدى اللغات الحية من انكليزيه وافرنسية وأيطالية وغيرها . اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة فى اتقان اللغات ويسهل على المعلم أن يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ فى تعليمه لغة وهو لا يحسن أن يؤلف بين جملتين صحيحتين فى تلك اللغة التى عهد اليه تدريسها ، ولم يجود التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته

(١) نشرت في العدد الاول من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٤ و ١٩٠٦

أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت أن الدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع فى اللغة نفسها . وأسقم المذاهب فى تعلم لغة أن يتكلم المرأ بلغته فى خلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال أن تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف بعد معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ، ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب بادىء بدء معرفة الاساليب فى اللغة الغريبة . فعلى من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها أن يفكر فى تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها . لا أن يصيغ تراجم وينقل جملا . فتستدعى الافكار والانفعالات للحال ما يحتاج اليه الطالب من الالفاظ التى يعبر بها عنها ، فتصير اللغة التى يتعلمها لغة ثانية له . ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفا بحرف ، بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقلما يسمع المتعلم فى معظم المدارس اليوم صدى اللغة التى يتعلمها ويقتضى له أن يربى عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للدارس دروسه بلغته الاصلية إلا بأم تود أن تعلم طفلها وهو ألكن تمام قواعد الفعل الماضى وتصريف الافعال الشاذة بدلا من أن تعنى بتعليمه أن يحسن تلفظ الكلمات الاولى التى يحاول التلفظ بها .

وما فتىء تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد فى كل قوم ومعظمه دائر فى الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما إما أن يقيم المتعلم زمناً فى بلد اللغة التى يريد تعلمها أو أن يكون أهل الطفل فى سعة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالعمل بين ظهرانى أهله وأسرته . وقد ابتدع الاستاذ برليتز الامريكانى طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم فى أميركا وأوربا فأسفرت عن نجاح أكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلى وعلم عملى . وبلفظ آخر نظر فى المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا اشارات مكتوبة . والتعليم سماعى أولا ثم نظرى . ولا يعمد فى طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجما ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد كمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس لتعلم القواعد نفع حقيقى الا متى عرف المرأ اللغة . فالقواعد

تشرح اللغة شرحا علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستغناء عنها بادىء بدء وقلما تنفع فى تلقين اللغة شأن المصور لا يحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكيماوية ليصنع صوراً شمسية بديعة .

ما اللغة فى الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فاقتضى فى تعلمها أن يسير الانسان من نفس الحياة لا أن يعمد الى اشكال من ، التعبير لاتمس ولا تتحرك وقلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبداءة بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراد تعلمها إضاعة للوقت واتعاب للذهن على غير طائل ومن العسر المتعذر أن يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لا يضع احداهما على الاخرى . وكذلك الحال فى اللغات فقد امتنع أن يحكم وضع لغتين احداهما على الاخرى .

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة الغريبة . فكل مايقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك بتربية الاذن والحواس الصوتية . فيلقن الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الاولى بالاعمال والحركات : يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب أو يفتح الباب ويرفع الكتاب ويضعه ثم تعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تاليف جمل صغيرة يتزايد كل يوم عددها بسرعة فيكون التلميذ بهذه الطريقه فى تأليف الجملة ما يلزمه من أوليات القواعد والروابط — والامم باسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولا ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ما تمس حاجته اليه الى أن يكتب بدون غلط أو يتعلم التلميذ أولا معانى الكلمات الغريبة ثم يلقى التمرينات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم اللازب الاعتياد على الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان ينتقلان من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التى يراد اتقانها

وللفظ فى هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يعنى بتقديمه من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها من الاسلوب الطبيعى فى طفولتهم أو أتقنوها بمقامهم فى البلاد التى تتكلم فيها تلك اللغة . وجودة التلفظ هو روح

اللغة على التحقيق . ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وتجلت اللهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن المؤكد ان التلفظ لا يكاد يصلح اذا فسد لأول مرة . وصعب على الانسان ما لم يعود . فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة فى الاغلب . اذ كل معرفة يرشد اليها المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلما تجد الالفاظ فى لغة ما يقابلها فى لغة ثانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة مهما أتقنت أن تنقلها على أصلها إذ التصورات التى تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معنى ومبنى . كتب أحد الغرباء الى فنلون العالم الفرنسوى المشهور (أن لى منك يامولاى أمعاء والد) يريد أن يقول « قلب والد » وقال الفونس الثانى عشر ملك أسبانيا وقد جاء قصره فى يوم احتفال ! « أتود أن تتعب معى نحو النافذة » يعنى بذلك أن تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذاك الكاتب وهذا الملك أن يتكلما الافرنسية على طريقة الاستاذ برليتز اذاً لنجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنهما فى سهولة التعبير وجودة التصوير شأن أولئك التجار والسوقة ممن ينزلون بلاداً لا يحسنون لغتها فما هو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها زمناً فيحسنونها ولا احسان من تعلموها على دكات المدارس وهم يقلبون المعاجم ويتأبطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهرين ناسين . وطريقة برليتز هذه أن يستعمل أولا اللغة المتعلمة خاصة وأن يتابع التصور فى اللغة الغريبة مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وأن تعلم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم اسماء المعانى بتتابع التصور أو يدرس النحو بالامثلة والشواهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز فى اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيويورك الى باريز عام ١٨٨٩ فأسست فى هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب فى تلك السنة الى انكلترا وألمانيا فأسست فى كل من لندن وبريس مدارس لهذا الغرض وما برحت مدارسها تتكاثر فى الاصقاع الاوربية حتى كانت فى بدء هذه السنة ٣٤٣ مدرسة فى أوربا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد فى الوقت والمال . وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل

تلميذ استاذه الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه فى قاعة الدرس من منضدة وكرسى وكتاب وباب ونافذة يلفظها بلفظها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا تعددت المسميات لدى الاستاذ فى الغرفة يعمد الى صور سهلة واضحة رسمت على صفحات مجموعة فما هو الا أن يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت بصره مع الالوان التى يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الجسم وأفعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم فى اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . فلا يمضى ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة فى الاستعمال والمفردات التى تدخل غالباً فى الاحاديث العامة ويتمكن فى ستين درساً من بيان فكره أصح بيان فى كل حالة علاقة بمجرى الحياة الاجتماعية العادى . ويحسن فى اختيار المعلمين أن يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم .

ومما يضحك ما وقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسويين وكان يدرس الالمانية على طريقه برليتز قيل انه لما بلغ به المعلم الى تمييز الفعل المتعدى من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من المتعدى واللازم وأخذ معلمه يشرحهما له بالاشارة تارة والتشبيه طوراً فلم يفلح وكان تلميذه معه كأعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم . وأبى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع الحاحه عليه فى ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الغيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا أمره الى والده فقال له : أى بنى لقد احسن الاستاذ أن أبى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لعزب عن ذهنك وأصبح لديك بعد زمن نسياً منسياً . أما الآن فانى على ثقة من انك لا تنس التفرقة بين الفعل اللازم والمتعدى ولو بعد مئة سنة .

قال الكاتب الذى عربنا عنه أكثر هذا المبحث وقد كان أرباب الافكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة بل انه لا بد فى الاولى من المران على التكلم بها من أول وهلة وانه مامن لغة مهما تراءى من صعوبتها على المتعلمين لاول الامر سواء كانت اللغة الروسية أو الهندية أو العربية أو الصينية الا ويتيسر اتقانها على طريقة برليتز فى مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم .